غريغوار دولاكور

رواية

فصول الصيف الأربعة

المركز الثقافي العربي

مكتبة الرمحي أحمد

غريغوار دولاكور

فصول الصيف الأربعة

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

الكتاب
فصول الصيف الأربعة
تأليف
غريغوار دولاكور
ترجمة
معن عاقل
الطبعة
الأولى، 2017

العنوان الأصلي للرواية:
Les quatre saisons de l'été
Grégoire Delacourt

© 2015 by Editions JC Lattès
All rights reserved

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

غريغوار دولاكور

فصول الصيف الأربعة

رواية

ترجمة: معن عاقل

للمزيد والجديد من الكتب والروايات زوروا صفحتنا على فيسبوك

مكتبة الرمحي أحمد

المركز الثقافي العربي

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

من أجل دانا، دانا، دانا ودانا.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

«ونحن، كنا مثل فوانيس الأعياد في الليل:
كان ألم وفرح قصص حبنا يستهلكاننا».

فاليري لاربو، **صبيانيات**

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

تمهيد

بعد نشر رواية **كاتب العائلة** بنحو عام، تلقيتُ بريداً إلكترونياً موقّعاً باسم امرأة تدعى ب* - إنَّها في سن السابعة والثلاثين من عمرها، وهي حبّ حياتي الأول.

ذكرى عزيزة إذاً، ولم تزل واضحة، إنَّها ليلة لا يتجرأ أن يحلم بمثلها أحد في سن الخامسة عشرة، صادقة وحمقاء، تلاها فراق موشى بالأسى عند الفجر، لأنَّه ترتّب علينا في ذلك الصباح، مثل نحو مئة من الصبية الآخرين الموفدين لتحسين لغتهم الإنجليزية إلى إنجلترا، أن نبحر على متن عبّارة في دوفر، وأن نستقلّ الحافلة في كاليه، ونلتقي أهلنا المذهولين في باريس. ثم افترقنا في الأنفاليد، وتبادلنا نظرة أخيرة قبل أن يختفي كلّ واحد منَّا في أحضان الراشدين، داخل سيارة خاصة وسيارة أجرة.

ولم أرَها ثانية قط.

مع ذلك تبادلنا بضع رسائل في البداية، ملتهبة (على الأقل رسائلي)، لكن إحدى الرسائل وقعت بين يدي والد ب*، وبصراحة لم تعجبه عباراتي النثريّة ولا حيويّة ذاكرتي، ومنعني منذ ذلك الحين

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

من مراسلتها، أو التفكير في محاولة الاتصال بها، أو أن أحلم بلقائها وحتى، كما أتصور، أن أفكّر فيها ولو للحظة.

انتهى حب حياتي الأول إلى الفشل. استغرقتُ في حزني لبضعة أشهر، ورحتُ أقرأ آنذاك، بخجل وارتباك، الشعر الرومانتيكي الموجود عند جدّي. قصائد ألفونس دو لامارتين، ألفريد دو فيني وجان فولان - الأقل رومانتيكية، أما أنا وهي، فبقينا حكاية مختلفة.

وها هي بعد سبعة وثلاثين عاماً من الغياب والصمت تظهر من جديد على نحوٍ مفاجئ وغير متوقع.

كانت رسالتها موجزة.

بدا لها أنَّها اكتشفتني في بطل روايتي الصغير، وتعرّفتْ على الأمكنة التي وَصَفْتُها، وكتبتْ بأنَّها تأثرت من نهاية الأب -مُفْترضةً أنّها كانت نهاية أبي نفسها- وأخبرتني أنَّ والدها توفّي قبل بضع سنوات، وتحدثتْ عن كلّ هذا الوقت الضائع، وباختصار، لنرَ إنْ كان بالإمكان أن نحتسي القهوة معاً.

تساءلتُ على الفور إن كان يجب عليَّ قبول هذه الدعوة أم يجب عليَّ العكس، أن أترك الماضي في مكانه؛ **في العتمة المريحة للذكريات، هناك حيث الوعود الناجزة والمنسيّة، والحنين للبشرة والروائح، هناك حيث الأحلام المدفونة تكتب أجمل القصص. في تلك العتمة التي لا يهدّدها شيء.**

نصحتني زوجتي أن أفعل ما أشاء. تحمَّسَ أصدقائي. اذهبْ، إنَّه أمر مسلٍّ! ألا ترغب بمعرفة ما آلت إليه؟ ماذا صارت تشبه؟ وهل ستحفل بها اليوم؟

لم أذهب.

ولم أشرب القهوة.

ولم أعرف ماذا صارت تشبه اليوم ولا إنْ كنتُ سأجدها لم تزل فاتنة.

لكنَّني فكرتُ في الأمر.

تساءلتُ عمّا كانت ستؤول إليه حياتنا لو أنَّنا التقينا بعد عودتنا من إنجلترا في سن الخامسة عشرة وما بعدها، لو أنَّنا بقينا معاً، ولو أنَّنا أمضينا معاً بعض الوقت - وربما وقتاً طويلاً.

لا أدري إن كان حبنا الأول هو الأجمل.

في جميع الأحوال، يظلّ حباً لا يُنسى. فهو يصيغ العاشق (أو العاشقة) الذي سنصيره. سيبقى وعداً أو حسرةً. سنشتاق له دوماً.

كان كلّ هذا يحزُّ في نفسي، ومنحني فيما بعد الرغبة للعودة إلى موئل حبنا الأول. هناك حيث يبدأ كل شيء. ولكن ليس في مقهى.

إنما في كتاب.

وها هو هذا الكتاب.

أروي فيه المرة الأولى للويس وفيكتوار، في سن الخامسة عشرة، على رمال توكيه - وبالضبط مثل لويس، تمنيتُ آنذاك أن أصدّق أن المرء قد يموت من الحب؛ وبالأخص من الضنى.

تابعتُ مع إيزابيل الجميلة: في سن الخامسة والثلاثين، هل يحقّ للمرء مرة أولى أخرى؟ هل يمكن للمرء أن يجدِّد كل شيء بعدما أخفق في كلّ شيء؟

ومونيك وروبير، الخمسينيان، يلتقيان معاً لوحدهما، للمرة

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

الأولى، بعد أن غادر آخر العنقود حياة كلّ منهما، فماذا سيفعلان بهذه المرّة الأولى الجديدة؟

وكما في مسرحية حلقة الرقص الدائريّة للكاتب الألماني آرثر شنيتزلر، لقاء يقود إلى آخر، يتلاقى العشاق، يتشابكون، يخفقون أحياناً، يؤثرون بعضهم ببعض، ويغيرون حياة آخرين من حيث لا يدرون، وينتهون إلى كتابة حكاياتنا، حكاية كلّ واحد منّا، حكايات حبنا ورغباتنا وندمنا - 14 يوليو في توكيه؛ يروون فيه عن حفلة المشاعر الراقصة واللطيفة، عن رقصة فالس الرغبات المدوخة والأخاذة، حتى المرة الأخيرة الجميلة بحدّ ذاتها كما لو أنّها آخر مرّة أولى: حكاية بيير وروز، في الخامسة والسبعين من العمر، لا تزال خدودهما ورديّة، بسبب الريح التي تهب هنا، حتى في فصل الصيف، وبالأخص بسبب ما يربطهما إلى الأبد.

فصول الصيف الأربعة هي فيلم صيف 42 الخاص بي. فيلم صيف في لويزيانا الخاص بي. فيلم طريق ماديسون الخاص بي. فيلم حب الخاص بي. إنها أربعة فصول حب في حياة واحدة.

لستُ أدري إن كانت ب* لا تزال تقرأ كتبي - وآمل أنّها لم تأخذ رفضي لاحتساء القهوة على محمل السوء، فعند قراءتها لهذه السطور ستعرف أن مكانها محفوظ في قلبي.

مثل كلّ واحدة من مرّاتي الأولى.

كزبرة الثعلب(*)

(*) كزبرة الثعلب أو البلان أو المرقئة الصغيرة، نوع من النباتات من الفصيلة الوردية.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

في ذلك الصيف، كان كابريل[1] يغني أغنية **خارج الصيف** وكان جميع الناس يغنون كابريل.

حلَّ ذلك الصيف بسرعة. وفي الحقيقة ارتفعت درجة الحرارة فجأة ووصلت إلى العشرين درجة مئوية منذ عطلة نهاية الأسبوع الأخيرة في شهر مايو. عندئذٍ بدأنا نسمع تباشير الضحكات في الحدائق المسوَّرة، والسعال الجاف بسبب دخان الدهون المتصاعد من الشوّاء، وصيحات النساء المذهولات بالشمس وهنّ نصف عاريات. كأنها زقزقات عصافير. كأن القرية كلها أصبحت قناً للطيور.

وبدأ الرجال بعد ذلك يلتقون في المساء، عندما تحلّ البرودة، يشربون النبيذ الوردي البارد، ليتجنبوا الكحول، وليُهمدوا الرقى

---

(1) فرانسيس كابريل: هو مغني وملحن وكاتب أغاني وعازف غيتار فرنسي مشهور ولد في 23 نوفمبر 1953 في باريس لأبوين مهاجرين إيطاليين معروف عنه أداءه للأغنية الفرنسية الملتزمة وتحكي مجمل أغانيه عن الحب والفن والجمال.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

المؤذية، وليستطيعوا أن يسرفوا في الشراب. وكان الصيف قد بدأ فعلاً.

في ذلك الصيف، كانت هناك فيكتوار. وكنتُ أنا.

كانت فيكتوار جميلة. ذات شعر ذهبي وعينين زمرديتين، كأنهما حجران كريمان صغيران، وفمها فاتن كثمرة ناضجة. جميلتي فيكتوار، كان أبوها يقول ضاحكاً، وهو مفتون من مزحته. لم تصبح جميلتي بعد، لكنني كنت أقترب من ذلك. بلطف.

كانت فيكتوار في سن الثالثة عشرة. وكنتُ في الخامسة عشرة.

كنتُ أتمتع بهيئة راشد صغير، كما تقول أمي، وهي هيئة تُذَكرها بهيئة أبي عندما تَعَرَّفَتْ عليه. كان صوتي أجشاً تقريباً، وأحياناً أبحاً، كأصوات بعض الرجال عند الفجر. وثمة زغب داكن يتهدّل على شفتي. لم تكن المحصلة وسامة فائقة كما بدا آنذاك، لكن زُمُرّدَتي فيكتوار تميزتا بموهبة رؤية ما وراء الأشياء.

كنتُ صديقها. وكنتُ أحلم أن أغدو أكثر من صديق.

* * *

خسرَت أمي عملها بداية ذلك العام. عندما بدأ الطقس يصبح شديد البرودة.

كانت تعمل بائعة في متجر **مود دو باريس** في شارع إيسكيرمواز بمدينة ليل. وقد صنع سحرها ورقّتها فيه الأعاجيب، وجَمَّل ذوقها السليم الكثير من الأشباح المنتفخة وأنقص وزنها. لكن ذلك لم يمنع عنها وحلَ الظلم.

بعد أسابيع من الدموع وشرب المارتيني، قررتْ أن تستعيد زمام

حياتها. فسجلت في دورة محاسبة. راحت تقول إن لم أحصل على النقود، يمكنني على الأقل أن أعدّ نقود الآخرين. كنتُ أحب سخريتها الناجية. قصّتْ شعرها واشترت ثوباً شفافاً، بلون وردي غامق، يبرز بوقاحة قدّها الأهيف وصدرها العفيف.

بعد موت والدي -أُصيب بنوبة قلبية، وهو يقود سيارته الحمراء، فقتلته على الفور، لكنها أوقعت ثلاثة ضحايا آخرين- لم تحظَ أمي بالحماسة لتفتح قلبها لرجل آخر.

لن يعوّضه شيء، ولا أحد، تنتحب، إنني امرأة حب وحيد، لقد قطعتُ وعداً.

كانت تعتقد، وقد رغبتُ أنا نفسي آنذاك أن أصدّق ذلك، أنّ الحب وحيد. أنه لا يمكن استبداله البتة.

كنت في الثالثة من عمري. ولم أكن أتذكر والدي. كان هذا الغياب للصور، والروائح والذراعين القويتين والقبل الشائكة، يجعل أمي تبكي. لكنها واظبت على استحضاره. راحت تعرض عليّ صورهما في بداية علاقتهما: في حديقة، على شاطئ إيتروتا، صور عاتمة في عربة قطار من الدرجة الثانية، على شرفة مطعم، نافورة في روما، ساحة جميلة خلف قصر ماتي دي جيوف، سرير واسع، ناصع البياض، صباحاً بلا شك، هو ينظر إلى العدسة، وعليها هي أن تلتقط الصورة، يبتسم، إنه وسيم -جيرار فيليب(*) في فيلم

(*) جيرار فيليب (1922-1959): ممثل سينمائي ومسرحي فرنسي، ولد في مدينة كان، على ساحل البحر المتوسط. بدأ حياته الفنية في مسرح جان فيلار عام 1942، وسرعان ما أصبح الممثل الرئيس فيه. في عام 1943 مثّل في أول أفلامه السينمائية «أطفال شاطئ الأزهار» ولكن النجاح

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

الشيطان في الجسد- متعب، سعيد، لا شيء يمكن أن يحدث له. لم أكن موجوداً بعد. ليس ثمة إلّا صور أولى من فيلم حب طويل.

كانت تحكي لي عن يديه. عذوبة بشرته. دفء أنفاسه. تحكي لي عن طريقة احتضانه لي بين ذراعيه برعونة. طريقة مناغاته لي. تترنّم بالأغاني التي غناها في أذني عند ولادتي. كانت تبكي الغياب. الصمت. تبكي مخاوفها، وبكاؤها يرعبه. راحت تتخيل حال تجاعيده اليوم وهي تنظر إلى الصور الفوتوغرافية النادرة. هناك، كما ترى، لكانت عيناه كشمسين صغيرتين. وتجعيدة الأسد هنا، لكانت تجوّفت كثيراً. لكان لديه أيضاً شعر أشيب متفرّق هنا وهناك، ولكان ظلّ وسيماً.

وتنهض وتهرع إلى حجرتها.

وأنا أشبُّ، حلمتُ بأخ، بأخت عند اللزوم، ولم لا، بكلب ضخم ملائم، لكن أمي ظلّت وفية لحبها الكبير المفقود. لم يجعلها حتى السحر الجذاب -الهوليودي كما يُقال في القرية- لصيدلي شاب كان يعجبها تبدّل رأيها، ولا حتى العطور والشوكولا والوعود وباقات الورد.

في ذلك الصيف، تعلمتْ أمي فصل النفقات والخسائر بحسب طبيعتها. تعلمتْ لائحة الجداول والرموز. العبوات المستردة.

= والشهرة الحقيقيين لم يأتيا إلى فيليب إلا مع فيلم «الشيطان في الجسد» (1947)، للمخرج كلود أوتان-لارا حيث أدى دور فتى خجول، شديد الحساسية، يعاني من محيطه المملوء بالتفاهة والكذب.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

في ذلك الصيف، جعلت مني مُدَرِّسَها. أستاذها. وأخذت تسميني رجلها الصغير. وصارت تجد أنني أزداد شبهاً بأبي. كانت فخورة. تحبني. تبتسم لي وأنا أضغط لساني بقوة لألعق المغلفات التي دست فيها سيرتها الذاتية، كأنها زجاجات صغيرة تلقيها في البحر. تمسك يدي. تقبّلها.

- أنا آسفة بشأن هذا الصيف، اعذرني يا لويس.

في ذلك الصيف، لم نذهب في عطلة صيفية.

* * *

كنا نسكن في سانغان-آن-ميلانتوا.

قرية لا تشبه شيئاً ولا يميزها المرء عن جميع القرى الأخرى. كنيسة سان نيكولا من القرن السادس عشر. متجر بي إم يو لو كروازيه. متجر ويت آ ويت. مخبز دوسي. متجر روج بيفوان لبيع الورود. مقهى في المركز. مقهى آخر. وثالث أيضاً ينحشر فيه أولئك الذين لم يعودوا يسيرون بسرعة. كأنهم يشربون سموماً تجعلهم يترنحون ويتحدثون عن القوارب والعواصف وأشياء لم يعرفوها. لكنهم يتذكرونها. أشباح. أمكنة سافروا إليها دون أن يتحركوا من هنا، من أجل حرب أو من أجل فتاة. أوقفني أحدهم ذات مساء وأنا عائد من المدرسة. صرخ، أيها الصبي الصغير، إن أيّ امرأة من قرية تونكينوا، لها جسد آلهة، عاهرة رائعة، آه، متوحشة في عيون الليل. ستتعرف ذات يوم يا عزيزي إلى تلك النار العظيمة، إلى جسدك الذي يلتهب.

لم يكن مخطئاً.

كانت نساء أحلامهم تسبح في قعر أقداحهم. كانوا يحكون أن وجوههن ترسم خرائط وألم تلك البلدان التي لم يذهبوا إليها قط.

سانغان-آن-ميلانتوا. بعد الحانات المنتشرة حتى أطراف الحقول الشاسعة المزروعة بالشمندر والحبوب، سرعان ما تتبدى المنازل القرميدية وحدائقها المنعزلة بعضها عن الآخر، كأنها بقع عشوائية، كما تتكشف الطرق الترابية الممتدة حتى غابة نوييل، وهناك يصبح الصبيان في مقتبل العمر رجالاً أمام الفتيات، وهم يصوبون بنادقهم نحو العصافير التي تطير بفضل من الله أسرع من رصاصاتهم.

قرية يعرف فيها جميع الناس بعضهم الآخر لكن أشياء كثيرة قُتِلَتْ فيها، الحقائق كما الأكاذيب. قرية يُشاع فيها أن ألم البعض يُطمئن سطحية الآخرين. أن غياب المستقبل فيها يثير أفكاراً حزينة ويجعل الغضب يتدفق، والناس تختفي، في الليل.

كان لدى أهل فيكتوار منزل كبير من القرميد الأحمر، يحاذي طريقاً يفضي إلى أنستانغ. والدها مصرفي يعمل في بنك كريدي دو نورد، 8 بلاس ريهور في مدينة ليل. ليس فكاهياً البتة، كما تقول فيكتوار، يرتدي دوماً ملابس رجل عجوز، وحين يبتسم يبدو كأنه يعبس. أمها «ربة منزل». كائنٌ هشّ أوشك دمها أن يتسمّم. ومنها ورثت فيكتوار هذه البشرة النضرة؛ منها أخذت التصرفات اللطيفة والحركات الدقيقة، كما لو أنها الحركات الأخيرة؛ منها جاء هذا الحس المثالي والخطر -سأفهم ذلك فيما بعد- بالحب، وعلى الأخص بالرغبة. كانت تكتب قصائد ينشرها لها زوجها المصرفي على حساب المؤلف؛ كتيبات صغيرة تقرأ واحداً منها في صالون

منزلهم الفسيح عصر يوم في كلّ شهر. وتزعم الشائعة أنّ كلماتها الموزونة كانت مصحوبة بالشاي والكاتو الذي يستمتع به المستمعون. وبدل أن تربكهم غنائية الشاعرة، كانت المعجنات تصمد أكثر من الشعر الحقيقي: الشعر الذي يغني «فانيل» و«شونيل»(*)، **بوظة الفلاندر بالفانيل/ ملبس الشوكولاتة الأسود بشكل شونيل.**

لدى فيكتوار أخت كبرى. حسناء في السابعة عشرة من عمرها تُدعى بولين، شخصية مجبولة من شيء من الغمّ والاضطراب الذي يرعبني ويذهلني في آن معاً. شيء يثير الرعشة في جسدي. يثير نشوته. وإذا ما حدث لي أن حلمتُ أحياناً في الليل، وأنا في سن الخامسة عشرة المفعمة بالحيوية ونفاد الصبر، وحتى بالتهور، فإن جسد بولين هو ما كنت أفكر فيه.

لكن فيكتوار هي من كنتُ أحبها.

* * *

أتذكر أول مرة رأيتها فيها. منذ أكثر من ثلاثة عشر عاماً.

حدث ذلك في مكتبة عامة، في شارع ماريشال-لوكليرك. جئتُ إليها لأعيد قصصاً مصورة. شاهدتها هناك مع أمها التي تبحث عن أحد أعمال هنري ميشو بيأس. قالت بغضب، لا يوجد شيء هنا بالتأكيد، فهذه ليست مكتبة، بل مهزلة. لكن مَن يقرأ الشعر الآن يا سيدتي، الشعر! وفي سانغان-آن-ميلانتوا! الأجدر بكِ أن تهتمي

(*) أي الشعر المقفى، فانيل هو نبات وشونيل تعني الدودة.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

بالرواية البوليسية، خذي، مع بطل هذا الكتاب ثمة شيء من الشعر والتضحية والفظاعات والاضطرابات اللانهائية والنفوس التي تتحطم.

نظرت فيكتوار إليّ، وتسلّت بأسلوب الراشدين، وتضايقت من لهجة أمها. كانت في سن الحادية عشرة. صهباء السينما، بطول باردو. عيناها مذهلتان - ولم أعرف أنهما بلون الزمرد تماماً إلا فيما بعد. وقاحتها غير متوقعة.

اقتربتْ بحذر.

- أنتَ لا تعرف القراءة؟ ألأجل هذا تستعير كتباً مصورة؟

- فيكتوار!

هزتْ عندئذٍ كتفيها.

- إنك محظوظ، ليس من الضروري أن تسألني عن اسمي.

ولحسن الحظ، لحقت بأمها.

لأنني شعرتُ بالحرارة فجأة، رغم خيط العرق البارد الذي يسيل في ظهري.

لأنني ما كنتُ لأستطيع التفوّه بكلمة واحدة.

لأن قلبي، كقلب والدي، كان يوشك أن ينفجر.

في بداية شهر يوليو، سلك نصف سكان القرية طريق توكي أو سان-مالو فيما سلك النصف الآخر طريق كنوك-لو-زوت أو لابان.

بقيتُ أنا وفيكتوار في سانغان. وكذلك أمي التي راحت تبوّب حساباتها. وأيضاً أبوها الذي كان يكشر وهو يدرس طلبات قروض الطلاب، وأمها التي تحاول أن تعتصر من ريشتها المتألمة كلمات لا بد أن تمس يوماً شغاف قلب العالم وتقلب كآبة الخاضعين والمستسلمين. أما بولين فكانت في إسبانيا، تعيش على الليل، وعلى مشروب بونش كاباليرو، وعلى المجهولين.

كان لدينا جيران من آل دولالاند. جاؤوا من شارتر قبل عامين، أي في عام 1997. هو انتقل للعمل في فروتان على مسافة بضعة كيلومترات من هنا، عند مستورد السيارات كانتون هازيل؛ أما هي، فوجدت في العام التالي وظيفة مدرِّسة في جامعة كاثوليكية في مدينة ليل، في تفسير الكتاب المقدس. زوجان أربعينيان، دون أطفال، يُشَكِّلان عائلة رائعة. هو يشبه موريس رونيه، لكنه داكن أكثر منه، وهي صهباء مثل فرانسواز دورلياك. كانت تنظر إليه بعيون

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

الراصدة والعاشقة. عيون المالكة. كان منزلهما من المنازل النادرة في القرية التي تحتوي على مسبح وبسبب علاقتهما الطيبة مع الجيران، كلفني غابرييل -طلب مني السيد دونالد: نادني غابرييل- أن أهتم بصيانته حين يصطحب زوجته إلى ساحل الباسك، حتى بداية شهر سبتمبر على الأقل. وقد حدّد بدقة السبب، لكي يعثر على هزيم ريح الجنوب، **الريح الصرصر** كما تسمى هناك، وعلى هدير المحيط، كأنه يذكّرنا كم هي الأشياء مسطحة هنا وحزينة ولا مفرّ منها.

ستتيح لي نقود صيانة المسبح شراء دراجة نارية يوم بلوغي سن السادسة عشرة. وقد تفحصتُ مع فيكتوار إحدى تلك الدراجات في متجر موتوبيكان للبضائع المستعملة، دراجة «زرقاء» في حالة جيدة باعها متقاعد في القرية. حلمنا آنذاك، ونحن جالسان على المقعد البلاستيكي الطويل المبرقع بشرائط لاصقة سوداء، ذراعاها حول خصري، ويدي اليسرى فوق يديها، أنفاسها على رقبتي، حلمنا بقضاء حياة لاثنين.

* * *

كنتُ متلهفاً لأن تكبر.

كنت أتعجّل أن تتلاشى براءتها الطفولية وروائح صابونها العطري وروائح أزهارها.

كنتُ متلهفاً لأن تفوح منها أخيراً الروائح الواخزة والحارة التي أشمّها عندما أمشي وراء بولين، ووراء بعض فتيات صفي آنذاك، ووراء بعض النساء في الطريق.

روائح بشرة، روائح دم.

* * *

رحتُ أنتظرها كل صباح قرب منزلها، فتهرع كلّ صباح على دراجتها نحوي. تضحك. تلتمع زمرّدتا عينيها. وفي كل صباح، تصرخ الشاعرة من نافذة الطابق العلوي قبل أن تعود إلى قصائدها الكئيبة:

- لا تتحامق! أعدها على الغداء!

كنا وحيدين في العالم. كنّا فيكتوار ولويس، وعدٌ أشقر. لم نكن نفترق.

كنا نهرع نحو المارك، النهر الذي يجري حتى بوفين -أجل، يشبه اسم معركة تحمل الاسم ذاته وقعت في يونيو 1214- وحين نشعر بالإنهاك، نسقط أرضاً، فأجد لها خواتم زواج من العشب تَضعها في أصابعها الرقيقة وهي تضحك، وأحدّد لها من ثنية خنصرها الصغير عدد أطفالها في المستقبل. فتقول، لكنني لن أتزوجك أبداً. وحين أسألها عن السبب، تجيبني بأنني لن أعود عندئذٍ صديقها المفضل، فأخفي جرحي بالاحتجاج.

- بلى، بلى، سأبقى صديقكِ دوماً، طوال حياتي.

- لا، عندما تصبح علاقتنا غرامية قد يخسر أحدنا الآخر، ولا أريد أن أخسركَ أبداً يا لويس. ثم تقفزُ مثل جدي الماعز وتمتطي الدراجة من جديد.

- من يصل أخيراً هو الجبان!

كانت الطفولة لا تزال تنازعني عليها. كانت الطفولة تستردّها مني.

لذلك رحت أكبح رغباتي كصبي. وأخذتُ أتعلم الصبر - هذا الألم المرَوِّع.

حين نعود في ساعة الغداء اللاهبة، تُحَضِّر لنا أمها وجبة خفيفة، كما نسميها، في ظلّ شجرة زيزفون وارفة: لحم شهي، خضار متنوعة، عصير ليمون، وأحياناً عندما يكون الطقس لطيفاً، تُحَضِّرُ لنا خبزاً مقلياً مع الحليب والسكر للتحلية أو قشدة الشوكولاتة. كنتُ أحب الشارب الذي يرسمه الكاكاو على شفة فيكتوار، وأحلم أن أمحوه بلساني، بينما يتدفق الدم في الأسفل، فأطأطئ عندئذٍ رأسي بمزيج من اللذّة والحياء.

أما عصراً، فنذهب إلى حديقة دولالاند - لكنها لم تشاهد غابرييل إلّا مرة واحدة، وكان هذا كافياً لتجده وسيماً. «وسامة يائسة وقاتلة».

وبواسطة شبكة ذات ذراع طويلة، كانت تساعدني في رفع الأوراق الطافية على سطح الماء. كان عليَّ مرة واحدة في الأسبوع أن أتحقق من الرقم الهيدروجيني للماء مع اختبار اللون والتأكد أن نسبته بقيت حول 7.4.

ورغم كل شيء، كنا نسبح.

أحياناً كنا نتسابق لمسافات مختلفة. كانت فيكتوار ماهرة في سباحة الظهر وتشبه حركات ذراعيها حركات متزلِّجَة. على وجه الماء، بدا لي أنها تستطيع أن تطير. وتختفي في الزرقة اللانهائية.

وتتخلى عني. كنتُ أغطس عندئذٍ للإمساك بها من قدميها؛ وأضمّها إليّ. تصرخ وتتظاهر بالرعب. وبعد ذلك تُحَلِّقُ ضحكتها عالياً قبل أن تستقر في قلبي. كنتُ أجذبها إلى الأعماق الواضحة. كنتُ أريد أن أنزلق، أنزلق معها إلى هاوية لا قرار لها، كما فيلم آبيس، وأن أجد ذاك المكان، تلك الجنة، ذاك الموضع الذي يغدو فيه كلّ غفران ممكن. لكننا كنا نطفو من جديد دوماً على حافة الاختناق، مرعوبين وأحياء.

كم وددتُ لو أموت معها في ذلك الصيف.

كنا نلعب أحياناً بالكرة لكن رعونتها كانت ترسلها أغلب الأحيان إلى آخر الحديقة فأضطر للخروج من الماء لاستعادتها. تلاحقني بعينيها وهي تسخر، فأعود في الحال للغطس في حوض السباحة، في إضمامة الماء الأخاذة، لأثيرها. ترفع عينيها نحو السماء وقد ثابَتْ إلى رشدها. عيناها حمراوان كعيون النساء اللاتي تبكين. النساء اللاتي يعشن حياة مجون. وشعرها المجعد والمبلل يرسم تاجاً على جبهتها.

كانت أميرتي.

- هَمَستْ لي ذات عصر، سأدعك يوماً تقبلني، قبل أن تصعد الدرج بخطى رشيقة ترسم طريق الضوء.

كنا نترك أشعة الشمس تجففنا ونحن ممدّدين على شاطئ خشبي يحيط بحوض السباحة، أحدنا في مواجهة الآخر. كانت ترتدي لباس سباحة مؤلف من قطعتين؛ القطعة العليا ساحرة، تخفي انتفاخين ناعمين، وحين تخلعها لترتدي ثوبها من جديد، تأمرني أن أستدير وتجعلني أقسم ألا ألتفت. وإلا سأقتلكَ، وسأكرهكَ طوال

حياتي. فأقهقه بصوت عالٍ ويثير ضحكي غضبها فتهرب وتتركني وحيداً هناك في الحديقة. جنّة عدن.

هناك حيث تختبئ الأفعى.

* * *

بدأت أمي تقلق.

كانت تفضّل أن أصادق صبياناً من عمري، وأن ترى ركبتيّ داميتين من العراك في المساء، وأن ترى وجنتي حمراوين من كثرة الجري وأن تسمع خفقات قلبي، كقرع الطبل. تمنَّتْ قمصاناً ممزّقة، نصبَ الأفخاخ فوق الأشجار، السقطات، الأشواك، المسامير الصدئة، سيارات إسعاف، تمنّت مخاوف الأم ولهفتها.

تمنت لي مراهقة خشنة. رجولية. مُشْعِرة. وخشيتْ أن يجعل غياب الأب مني «مخنثاً». حاولتْ أن تجعلني ألعب الجودو، لكنني بعد **حركة إسقاط الشجرة الميتة**، رفَضْتُ. سجلتني في نادي كرة القدم للصغار، إلّا أن انعدام كفاءتي أقصتني إلى مقاعد لاعبي الاحتياط.

كنتُ آنذاك طفلاً قليل الكلام. أحذَر الفظاظة وأحذَر الآخرين. أحذَر العنف الذي ينطلق أسرع من شتيمة. البصاق، القذارات. وكلّ ما يهين.

لم يكن الصبية يهتمون لأمري. فضلتُ عذوبة الصمت، وطريقة الفتيات اللطيفة في التهامس بالأسرار، وفي الاحمرار خجلاً وهنّ يرسمن الناس، وطريقتهن في نسج شباكهن. أحببتُ تلك الأسرار.

كان التلاميذ يسخرون مني أحياناً، ويدفعونني، في الممرات

وعلى الأدراج، وتجرأ أحدهم ذات يوم ونعتني بـ«لويز» فشعرتُ بالإهانة. وحاول آخر، طويل، استدراجي إلى ملاكمته. هيا، عاركني! عاركني، إن كنتَ رجلاً! هيا! رفعتُ كتفيّ إلا أنه انقضّ بكلّ ثقله على صدري. سمعتُ ضحكات شريرة لكنني لم أسقط. لم أبكِ. حميتُ وجهي. كان يجب ألّا ترى أمي عاري، وألّا تقلق، وتستنجد بهذا الميت الذي أتاح لي غيابه رؤية الجمال الخفي للأشياء.

فيما بعد، حين لن تعود فيكتوار موجودة، سأرتمي في معترك الرجال، في الملاعب الرياضية. سأغرق تحت ضربات تدمّر عذوبة وحنان المشاعر الزائفة. وسأبتهل في كلّ مرة، لكي يتحطّم هذا الجانب من طفولتي ويُدَمَّر كلياً.

لكن العنف لا ينتصر البتة.

- راحت أمي تكرّر، لا يمكنكَ أن تمضي كل وقتك مع فيكتوار، هذا لا يجوز. أذكّركَ أنها ما زالت فتاة صغيرة، وأنتَ أصبحتَ رجلاً تقريباً.

- عمري خمسة عشر عاماً يا أمي. وهذه ليست سن الرجولة في الحقيقة.

- لديّ أخ، وأعرف ما هي سن الرجولة. يلزمك أصدقاء.

- إنها هي صديقتي.

- لكن ماذا تفعلان معاً طيلة النهار؟

- أنتظر.

أنتظرها أن تكبر يا أمي. أنتظر أن تستطيع وضع رأسها على كتفي. أنتظر أن يرتعش فمها حين أقترب منها. أنتظر تلك العطور

الزكية التي تقول تعال، يمكنكَ أن تضمني الآن، وأن تذوب فيَّ، وأن تحترق. أنتظر أن أستطيع أن أقول لها الكلمات التي لا تُستعاد. كلمات تحفر أخدوداً في حياة اثنين. حبوراً. وأحياناً مأساة.

توقعتُ يا أمي أن تنتظرني. أن تقول لي، أجل يا لويس، سأرتدي خاتم الزواج العشبي وسأكون لك.

- أنتظر.

احتضنتني أمي عندئذٍ بين ذراعيها، وضمَّتني حتى كادت تخنقني، كأنها تُدخلني من جديد فيها كما في زمنٍ كنا فيه ثلاثة، زمن لم يكن يمكن لشيء سيئ أن يحدث فيه، لا قلبٌ ينفجر، ولا سيارة حمراء.

- إنكَ مثله يا لويس. إنك تشبه أبيك.

في آخر 14 يوليو من القرن الماضي، اصطحب المصرفي شاعرته وابنتهما إلى شاطئ البحر.

دعتني فيكتوار.

وصلنا إلى توكيه بعد مسير ساعتين بالسيارة.

كانت العقبة هي ازدحام الناس. دراجات هوائية، أحذية تزلج، زلاجات بعجلات، عربات أطفال وعربات بدواسات. صيحات. غَزْل البنات. فطائر ورقائق تقطر بالنوتيلا. أتذكر سعادةً محلاةً بالسكر، يوماً بيوم. واقيات مطر مضيئة بلون البشرة، رمال تتطاير وتحرق العيون. عُطَلٌ وإجازات لذوي الدخل المحدود. ارتعاشات الفقر.

على الشاطئ، ثمة ملاجئ صغيرة من القماش نُصبت هنا وهناك ضد الريح. عائلات متراصة حتى لا تطير. ولكي تتدفأ حين تغيب الشمس.

على بعد بضعة أمتار من هناك، ثمة بناؤون في السابعة أو الثامنة من عمرهم يملؤون السطول بالرمل الرطب لبناء أبراج

وحصون، وأحلام هشة لن تبلغ أي نجم، حتى يدركهم التعب، فيحطم الغضب كلّ شيء. وأبعد منهم بقليل، تسير عربات ذات أشرعة على حافة الماء، كفرسان هادئين يحثّون الخطى.

وعلى مسافة أقرب، ثمة زوجان خمسينيان -هو، بهيئة مصطنعة كهيئة إيفس مونتان في فيلم **سيزار وروزالي**- راح يقبّلها من فمها بمجونٍ وشراهةٍ مراهق لا يرتوي، تحت النظرات المستاءة، والحاسدة أحياناً، لأبوين من العمر ذاته وبعض النفوس الوحيدة.

جلسنا على الشاطئ في أعلى جادة لويزون-بوبي.

- أعلنت الشاعرة، ثمة عدد أقل من الناس هنا. سأستمتع بالقراءة.

غرس المصرفي مظلّة صفراء كبيرة في الرمل كي يحمي البشرة الرقيقة لقارئته؛ وبسط كرسيين قابلين للطي من القماش الأزرق، فبدوا كأنهما بركتي ماء، وجلسا. عجوزان قصيران فجأة. راحت تنظر إلى الكلمات في كتابها. وهو يتأمل البحر. لم تعُد نظراتهما تتلاقى. فقد ذهبت الخيبات بالرغبة، وأصابتْها بالغرغرينا.

أمسكت فيكتوار يدي وابتعدنا ونحن نصرخ. سنتسكع ونعود! ركضنا نحو ملعب الغولف، نحو الكثبان الرملية، هناك حيث يمكن للأطفال أن يفلتوا من الرقابة. وفي إحدى الزوايا، بمنأى عن الجميع، تمدّدنا جنباً إلى جنب دون أن يترك أحدنا يد الآخر. سنلهث بالإيقاع ذاته في وقت لاحق، وأتخيل أنّ قلبينا سيخفقان بالسرعة ذاتها. رحتُ أرتعش.

ثم تخامدت أنفاسنا رويداً رويداً.

- تقول: هل تعرف أن نهاية العالم ستكون بعد ستة أشهر، وأن الناس ربما سيكونون أمواتاً.

أبتسم.

- ربما.

- نهاية العالم! نهايتكَ، نهايتي، نهاية المزحة السخيفة لوالدي مع اسمي الأول، النهاية، النهاية، النهاية! وعلى أية حال، ثمة أناس أعلنوا ذلك، بل إن بعضهم يُحضّر لعيد رأس السنة الأخيرة في صحراء مثلاً. إنه العدم.

- أما أنا، فلا أرى هذا.

- وماذا ستفعل لو كانت نهاية العالم فعلاً؟

أَحمرُّ من الخجل قليلاً.

- لا أدري. لا أظن أن نهاية العالم ستحدث.

- أنتَ تقول هذا لأنك مغرم بي، ولأن نهاية العالم إن حدثت حقاً، فستغدو مغرماً بلا شيء.

- أبداً. إنني في غاية السعادة معكِ هكذا، كما نحن.

- ألا ترغب حتى بتقبيلي؟ يرغب الصبيان دوماً بتقبيل الفتيات، ولمسهنّ أيضاً.

خفق قلبي.

بالتأكيد أرغب يا فيكتوار بتقبيلك ولمسك ومداعبتك، وأتمنى أن أتجرأ على الإتيان بالحركات الرعناء، وأن أحدِّثك عن انتظاري المديد لك، عن قلبي الذي يخفق طوال الليل، عن يديّ اللتين ترتعشان حين تلمسان بشرتي وهما تتخيلان أنهما تلمسان بشرتك، عن أصابعي التي تحلم بشفتيك الشمرتين، بهذا الفم الجائع

والقاسي، الذي يقترح أحياناً مفردات امرأة. تهور امرأة. لكن العشاق العظماء خجولون جداً.

- قلتُ في نهاية المطاف، بلى. بلى. وإذا كانت نهاية العالم ستحدث، فإنّ هذا هو آخر شيء أودّ الحصول عليه.

- ما هو هذا الشيء؟

- قبلة.

ندت عنها ضحكة صغيرة صافية. كنورس أبيض.

- هيا!

التفتتْ بحيوية. سحق فمها فمي، وتصادمت أسناننا، وتذوق لسان أحدنا لسان الآخر لثانية، كانا مالحين، حارّين، وهذا كل شيء؛ وها هي الآن واقفة وتضحك.

- على أيّ حال ليست القبلة نهاية العالم!

ثم اختفت خلف كثيب رملي، وهي ترفرف مثل ريشة. واعترتني رغبة في البكاء. دموع كاوية.

وجدتها على الشاطئ. كان البحر في حالة جَزْر. تتسلق فيكتوار الرمل مرة أخرى، هناك حيث لم يعد والداها يهتمان بشيء. تحمل الريح صيحات النوارس المتهكمة. وسخرياتها مني. حين أصبحتُ على مستواها، نظرتْ إليّ، وصارت ابتسامتها حزينة وحلوة.

- لا أدري إن كنتُ مغرمة بك يا لويس، حتى لو كنتُ على ما يرام معك. الحب هو حين يمكن للمرء أن يموت من أجل شخص ما. حين يكون لديه يدان تلسعان وعينان تحرقان، حين لا يعود جائعاً. وليس لديّ يدان تلسعان معك.

كانت طفولتها تقتلني.

* * *

غير بعيد عن المصرفي والقارئة، ثمة عجوزان قصيران يضحكان وهما يحاولان أن يفرشا منشفة الشاطئ على الرمال، رغم الريح ورغم أصابعهما الصدئة.

تخيلتُ نفسي، وأنا أنظر إليهما، مع فيكتوار، في نهاية حياة لاثنين، في نهاية أوديسة ساحرة، ننطلق من هنا على دراجة ذات محرك ونحن متحاضنان، لنعود بعد نصف قرن، إلى مكان قبلتنا الأولى، ونحاول أن نفرش معاً منشفة الشاطئ.

لكن فيكتوار سارعت إلى إيجاد عالمٍ من دوني. من دون حبي المعذب. وشهوتي المتلهفة.

كانت حبي الحزين الأول. والأخير أيضاً.

* * *

عند عودتي من توكيه، وجدتُ أمي قلقة.

الأمهات عرّافات. يحزرن الأذى الذي قد تسبّبه الفتيات لقلوب أبنائهن. بَقِيَتْ هناك، بقربي، كما هو دأبها.

وحين انبجست دموعي ذات مساء، احتضنتني بين ذراعيها، كما في السابق، في زمن السيارة الحمراء المشؤومة. استقبلتْ أحضانها الدافئة والعذبة دموعي الأولى، الدموع التي تجعل العالم أثمن، كما شرحت لي آنذاك، الدموع التي تحتفل بدخولي في عالم الراشدين. معموديتي.

* * *

فيكتوار تنتظرني.

كانت تجلس على حافة حوض السباحة لآل دولالاند، قدماها في الماء. سمكتان صغيرتان، ورديتان.

ترتدي قميصاً أبيض فوق لباس السباحة وتضع نظارة أودري هيبورن تعطيها هيئة فتاة بالغة حديثاً. رأيتُ لأول مرة أظافرها مطليّة، عشر قطرات دم صغيرة متألقة. ولمحتُ لأول مرة في عنقها علامة من فرو الزباد، من الفانيلا، لمسة من زهر البرتقال، هذا العطر الذي ترشه نساء الأحياء الراقية في مدينة ليل، وبعض الفتيات المتبرجات خلف المحطة.

جئتُ وجلستُ بجانبها وألقيتُ مثلها سمكتيَّ الخرقاوين في الماء. سبحتا لبرهة بشكل دائري، مثل سمكتي فيكتوار. ثم مع اتساع الدوائر، أخذت أسماكنا الصغيرة الغريبة تحتك وتتلاشى في رقصة مائية عذبة. حاولتْ قدماي أن تداعب قدميها وأن تتشابك معهما في حميمية الماء. ابتسمتْ. فطأطأتُ رأسي وبادلتها الابتسام.

كانت أجزاء جسدينا الأبعد عن قلبينا تتعارف.

تجرأتُ على المغامرة في مفردات الأصابع: اقتربتْ يدي من يدها بالسرعة المتهادية لخمس أفاعٍ صغيرة، وحين مسّ خنصري خنصرها، انتفضت يدها، كجندب توقَّع أن يُبتلع، وهبطت على بطنها، على دفء بطنها، وبدا لي أن ثمة لحظة صمت رانت حولنا، كما في السينما قُبيل مشهد مرعب.

نظرتُ إليها. رفعتْ وجهها الجميل. وتجنّبتني عيناها. صار صوتها خفيضاً.

- لم أعد أستطيع أن ألعب معك لعبة **الفك المفترس**(*) يا

(*) فيلم إثارة ورعب أميركي من إخراج ستيفن سبيلبرغ من إنتاج 1975. في

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

لويس - ولا كرة الماء السخيفة، حتى وإن كنتَ مضحكاً حين تحتفل بصخب لتثيرني.

- أنا-أنا...

- لم أعد فتاةً صغيرة، قاطعتني وهي تقلّد السيدات اللاتي كنّ يأتين للاستماع إلى القصائد وتناول الكاتو عند أمها. لم أعد فتاة صغيرة لطيفة. وأنتَ أيضاً... وأيضاً... أنت...

وسحبتْ برشاقة سمكتيها الصغيرتين من الماء، وضمّت ساقيها إليها بحركة بدت لي هي الكمال النادر. وفهمتُ.

ما كان ينبغي أن يجمعنا صار يفرّقنا.

انتزع خيط صغير من الدم أحدنا من الآخر.

شعرتُ في تلك اللحظة أنها أخرجتني منها، أنا من لم يدخل فيها قط، أنا من بقيتُ مريضاً، مستسلماً، في حجرةِ انتظارِ قلبها.

حين سكتَتْ، فقدتُ القدرة على التفوّه بأية كلمة، وعلى الغضب. أنا الفتى ذو الخمسة عشر عاماً الذي يتخلوع في مشيته، أنا العاشق بلا كلمة حبّ، الحالم بلا جسد، اكتشفتُ الأسى، الأسى الفسيح، الأسى الذي تغنيه سيلفي فارتان، «كنا أطفالاً/ وكان حزننا أثمن من حزن الكبار»[1]. وددتُ أن يندفع جسدي في حوض السباحة، أن يغوص، ويدخل الماء في فمي وأنفي وأذني،

= الفيلم يحاول قائد شرطة وعالم بحري وصياد إيقاف قرش أبيض كبير عن الفتك بجزيرة صغيرة. في عام 2001 اختارت مكتبة الكونغرس الفيلم لحفظه في الأرشيف الوطني الأميركي للأفلام باعتباره أثراً ثقافياً وتاريخياً.

(1) كلمات مات بيتر وناجي استفان. الاقتباس الفرنسي، ميشيل مالوري.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أن يمتصّني ويبتلعني. تمنيتُ أن أموت عند قدمي أميرتي، أنا مَن غمرني دمها الأول وأغرقني.

نهضتُ. يا إلهي ما أثقل جسدي. لقد فقد لتوّه نعمة الطفولة ورعونتها المحبّبة.

التقطتُ الشبكة ورحتُ أنظف سطح الماء. أخرجتُ فيها ورقة شجرة خوخ، وبتلات ورد، وبضع حشرات محتضرة وأحلامي.

كل أحلامي.

بعدها بقليل، نهضتْ فيكتوار بدورها والتفّتْ حول المسبح وجاءتْ لتنضمّ إليّ. التصقتْ بظهري. طوقتْ ذراعاها صدري، كما كانت ستفعل بالتأكيد على دراجة «البلو» النارية لو أننا سرنا معاً نحو حياةٍ لاثنين. نحو نهايات العالم. هذه الصباحات حظ. بقينا على هذا النحو لفترة مديدة. صار جسدانا يتنفّسان بالإيقاع ذاته، ولم نعد إلا جسداً واحداً. **فيكتوارلويس، لويسفيكتوار. أناوهي.** لحظة سعادة كاملة. غير قابلة للغرق. ذكرى لحياة كاملة.

وتفهمتُ أمي أخيراً.

ثم تركتْ ذراعاها احتضانهما ببطء كما يتراجع الماء، وتبخرتْ عشر قطرات من الدم. طبعتْ قبلة على ظهري. وهذا كلّ شيء. شعرتُ عندئذٍ بفراغٍ هائل، وحين ابتعدتْ، همستُ بقسمي الأول كرجل.

- سأكبر بسرعة، أعدكِ. وعندما سأعود، سأخبرك ما الذي يعيد امرأة عاشقة.

* * *

في نهاية شهر يوليو، سافر أصحاب إجازات شهر أغسطس. وفرغتْ سانغان.

أولئك الذين لم يعودوا يسافرون منذ زمن طويل وجدوا أنفسهم على مشارب المقاهي. أصبحت تلك موانئهم وجسور إبحارهم. كانوا يستشهدون بأوديار: «أنا أيضاً، حدث لي أن شربت. وكان الشراب يحملني إلى أبعد من إسبانيا بقليل. إلى نهر يانغ-تسي-كيانغ، هل سمعت بنهر يانغ-تسي-كيانغ؟ اسمه مشتقّ من مكان في الغرفة، أؤكد لك ذلك!».

في 31 يوليو حدثت عملية سرقة، في رواق سينيوري، لكن اللص أو (اللصوص) لم يأخذ أو (لم يأخذوا) إلّا خزانة لويس الخامس عشر. لذلك عَزَت الشرطة السرقة إلى انتقام عائلي، إلى ميراث جرى توزيعه بطريقة سيئة، إلى حبٍّ جرى اقتسامه على نحو غير عادل.

كانت أمي تخطط لدعوة المصرفي والشاعرة حتى تشكرهما على اصطحابي إلى توكيه في آخر 14 يوليو من القرن الماضي. وبينما راحت تتخيل حفلة شواء في الحديقة مع نبيذ الروزيه -نبيذ الروزيه يجعل الجميع في مزاج منشرح- حاولتُ أن أثنيها عن ذلك.

- هذه ليست فكرة حسنة يا أمي، أمها مريضة، ولديها مشاكل، ولا تستطيع تناول اللحم. إنه يسمّم دمها.

- خضروات إذاً، خضروات مشوية، هذا يناسب الجميع، الخضروات.

- كفى يا أمي، من فضلك. لم نعد أنا وفيكتوار نلتقي كثيراً.

- آه، هكذا إذاً. كنتُ أتساءل متى ستحدّثني عن ذلك. لدى

الأمهات عيون إضافية كما تعرف. أعرف حق المعرفة أنك حزين، وأن الأزرق يكحّل عينيك في الصباح. سبق أن قلتُ لك أنه من حقك البكاء. فالدموع تنظف، وتُغْرِقُ الألم.

بذلت عندئذٍ ما بوسعها لتُغرق ألمي في ذكرى لقائها العظيم.

– لم يكن والدك قد جذبني البتة، تصوَّر. وحتى لو أُعْجِبْتُ به، كنتُ أجده غير مهم للغاية. حتى قلبه لم يكن مهماً: دعوة لاحتساء القهوة، للتنزه على شاطئ نهر دوول، لمشاهدة فيلم للمخرج العجوز تريفو، كنتُ أحب فيلم **جيلي وجام**، أو للإصغاء إلى فرقة فانيلي دي رونيت في غرفته الجامعية. كنتُ في سن التاسعة عشرة، وأحلم مثل جميع الفتيات باللامتوقع. كنتُ أحلم أنني مرغمة ومخطوفة. جذبني رجل أشقر طويل يرتدي نظارات ويريد أن يصبح كاتباً. رحنا نلتقي على شرفة مقهى، ونُسَوِّدُ صفحات دفاتر بأكملها. لكنني سرعان ما أدركتُ أن الكُتّاب لا يُحبّون إلا ما يكتبون، ويحبون نساء كتبهم فقط، بل إنهم ينتهون إلى التخلص منهنَّ دوماً في النهاية، باسم تراجيديتهم المغرورة التافهة. تخيلتُ أنني سأصبح عانساً.

بدأتُ بعد ذلك أتلقى الأزهار. لكنني لم أعرف ممّن. أتلقى كلّ يوم وردة مختلفة. وجدتُ هذا سخيفاً في البداية، وردة مختلفة كلّ يوم. زنبق. وردة جورية. عود الصليب. دهلية. وفي آخر يوم، تلقيتُ كتاباً عن لغة الورود. ونظرتُ إلى معاني جميع الورود التي أُرسلتْ إليّ: كل واحدة تشكّل كلمة في بوح الحب. هكذا بدأ أبوك ينمو في قلبي. وعندما جاء ينتظرني عند باب منزلي في سيارته الألفا روميو الحمراء القديمة التي يحبها، استسلمتُ له. جلستُ إلى جانبه، وعرفتُ أنني وصلت. أصبحتُ في نهاية المطاف موجودة

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

هناك حيث ينبغي أن أكون، ملتصقة به. **أناوهو**. وحين مات، اشتريتُ ورداً لأحتفل بسنواتنا الخمس.

تلك الورود. ميراثي.

* * *

كان الجو حاراً جداً.

بدأ متجر ويت آ ويت يبيع أحواض سباحة قابلة للنفخ -وهو ما لم يحدث من قبل في سانغان-آن-ميلانتوا لأن السماء تمطر مئة وخمسين يوماً في السنة تقريباً- وبسعر ذهبي طبعاً. كان الناس يتذمّرون من الحَر، الناس يتذمرون دوماً، ولم يخطر ببالهم الصيف الذي ينتظرهم في عام 2003. خمسة عشر ألف حالة وفاة.

كان الجو حاراً جداً.

رحتُ أقضي نهاراتي في مسبح الجيران، متمدداً على فراش رُسمت عليه سلحفاة شريرة. مستوى الكلور والملح مثالي. برودة الماء مثالية. زرقة السماء مثالية. الحياة مثالية.

لكن الكمال لا يستمر أبداً.

أحسستُ فجأة بظلّ. برودة ظلّ. فتحتُ إحدى عيني، معتقداً أن سحابة حجبت الشمس لتوها، كان غابرييل هناك. ضخماً. جميلاً وأسمر للغاية. راح ينظر إليَّ مبتسماً. حاولتُ الجلوس لكنني سقطتُ بطريقة بائسة في الماء. انفجر غابرييل ضاحكاً، وكانت ضحكته جميلة أيضاً.

- أرى أنك تعتني جيداً بمسبحي.

- لا تشوبه شائبة يا سيدي.

- غابرييل.

- غابرييل، هل عدت؟ المفروض أن تعود في بداية شهر سبتمبر.

مدّ لي يده مصافحاً، وأنا أقترب من الحافة. فتشبثتُ بها. رفعني بقوة أب.

- أنا، أجل، عدتُ. عدتُ وحيداً. أما هي فرحلت. ذات صباح، لم تعُد موجودة.

هل أخذت رياح الباسك العنيفة زوجته؟ الريح المجنونة؟ الأمواج الهائجة والقاهرة؟ خطر ببالي لبرهة أنه هو قد يكون دفعها. لا يمكن لامرأة أن تتخلى عن رجل بمثل هذه الوسامة. ارتعشتُ، وأمسكتُ منشفتي لأجفف جسدي. هزّ كتفيه.

- هذه أمور تحدثُ.

أعرف، فكرتُ. النساء تهجرنا.

أعطاني النقود المتفق عليها. ولسوء الحظ، خسَّرتني عودته المبكرة أجر خمسة عشر يوماً كانت ستمكِّنني من شراء دراجة «بلو» نارية، ومن استبدال السرج الطويل المزدوج بسرج وحيد.

اقترح عَليَّ بعد أن رأى خيبة أملي أن أستمر في العناية بمسبحه.

- حتى افتتاح المدارس إن شئتَ.

* * *

بعد ذلك، رحتُ أمضي الأساسي من أيامي في المنزل.

كنتُ أقرأ القصص صباحاً في ظلال الأشجار. وأمي تتدرب على قواعد المحاسبة وهي تدخن - كانت تقول: النيكوتين

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

يساعدني، يفيدني من أجل تركيز تفكيري. كنا نشكل معاً ثنائياً حكيماً، لا يبالغ في الأوهام. وعند الغداء، أذهب للعناية بمسبح غابرييل. وبعد ذلك أذهب للتنزه في مونت دي تومب التي كنا نذهب إليها فيما مضى، أنا وفيكتوار، فنترك دراجاتنا على طرف الحقول ونركض حتى نصل إلى بناء مخروطي شهير فوق قبر. كنا نتخيل الموتى الراقدين فيه منذ أكثر من ألفي عام، وما بقي من رفاتهم؛ ونختلق سِيَرهم؛ ونحاول بواسطة حيواتهم المتخيلة أن نكتب حياتنا.

ثم أعود، وقد ازداد حزني.

كان كابريل يغني في أغنيته **خارج الفصل**: «الصمت/ يلفت الانتباه أكثر».

في الليل، في جوف «الصمت الذي يلفت الانتباه أكثر»، كنت أفكر فيها دوماً.

وكما لدى الناس الذين يُحتضرون، كان فيلم حياتنا القصيرة يكرّ أمام ناظري: الوعود، والمَخاوف الطفولية التي تغدو جسداً مجبولاً بالرغبة حين نكبر، والضحكات التي لها خفّة الأجساد العاشقة، وكلّ الأحلام التي أدمجناها في حلم واحد لاثنين. رحتُ أحلم بأشياء لم تحتفظ بها لي. كنتُ أخاً، صديقاً، حبيباً مجانياً، حتى سال الدم اللعين. كنتُ صديقاً حميماً ولم أكُن حبيباً ممكناً.

حاولتُ أن أجد عبارة يمكنني أن أكتبها لها بورود أبي إلّا أن الكلمات خانتني.

ولكي أهديها تلك الكلمات ذات يوم، حين أبلغ سن الرشد، تمنيتُ أن أصبح كاتباً. حبيبتي الصغيرة فيكتوار.

يوم الثلاثاء الواقع في العاشر من أغسطس ذلك الصيف، وبينما كنتُ ألتقط عصفوراً ميتاً طافياً فوق سطح الماء، وجناحاه الصغيران مبسوطان ومتمفصلان على نحو غريب، أشار لي غابرييل من نافذة الصالة.

لم يكن وحيداً. لكنه لم يكن أيضاً بصحبة زوجته. فهي لم تعُد. لا. إنه مع امرأة أخرى الآن. رجل وسيم مثله لا يبقى البتة وحيداً لفترة طويلة. ذَكَّرني لون شعر هذه المرأة المجعد والأشقر بلون سنابل القمح، ذكرني بشعر فيكتوار. كان يقف مقابلها؛ يتكلم، يتكلم، ومن حين إلى آخر، كان الرأس الصغير الأشقر يميل جانباً بحركة ضجرة في غاية الجمال.

* * *

يوم الأربعاء الموافق الحادي عشر من أغسطس، نحو الساعة الرابعة بعد الظهر، وَجَدْتُ فيكتوار ممدّدة على بطنها قرب حوض السباحة، فوق منشفة بيضاء كبيرة. لم تجفل حين سمعت وقع خطواتي على الخشب. ظهرها العاري واللامع بسبب زيت الشمس

كان بلون الخبز الذهبي. لا بد أن بشرتها كانت ساخنة على نحو رهيب. تسارعت دقات قلبي وتحرّكت شياطين ليلي. أدارت وجهها ببطء نحو صوت خطاي، كأنها تنتظرني وتتوقعني؛ ببطء، كأنها لم تكن تريد الكشف عن ابتسامتها الخاطفة، والاعتراف بحلاوة الانتظار المُسْكِرَة، سعادتها. لكنها حين عرفتني، ندّت صرخة عن حنجرتها. مزيجٌ من الذعر والغضب.

- ماذا تفعل هنا؟ سألت وهي تستوي بهيئة مستاءة، وتخفي صدرها الوليد بقماش قطني أبيض بإيماءة مشعوذة.

- وأنتِ، ماذا تفعلين هنا؟

- أفعل ما يحلو لي، أفلتتْ عبارتها ممتعضة.

- لا شيء لتفعلينه هنا!

- أنتَ من ليس لديك شيء لتفعله هنا!

- أُذكّركِ بأنني المكلّف بصيانة حوض السباحة!

- وإذا أردتَ أن تعرف كلّ شيء فإنني أبلغكَ أنه سمح لي بالمجيء حين يحلو لي، سواء كان هنا أم لا!

هبّتْ واقفة فجأة، ومع أنني أطول منها بثلاثين سنتيمتراً، إلا أنها رازتني بالكبرياء المرعب ذاته الذي سأصادفه فيما بعد في نظرات بعض النساء، أولئك اللاتي يؤثرن اللعب بالنار، كما سأفهم عندئذٍ. وخاصة أن يحترقن بها.

- أنت لا تفهم شيئاً، رمتني بعباراتها وهي تلتقط حمّالة نهديها، لا تفهم شيئاً البتّة!

واختفت.

* * *

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

عدتُ يوم الخميس الموافق للثاني عشر من أغسطس إلى حوض السباحة في التوقيت ذاته، على أمل أن أجدها هناك، وأنسيها سذاجتي بالأمس.

كنتُ قد فهمتُ أخيراً.

خلال بضع ساعات من ذلك الصيف، فيكتوار ذات الثلاثة عشر عاماً التي أضرمت النار في قلبي أخلت المكان لفيكتوار ذات الثلاثة عشر عاماً التي ستُضرم النار من الآن فصاعداً في الأجساد. في جسدي. وأيضاً في أجساد الآخرين.

ستوقظ صحوتها كلّ الشهوات.

وفي عصر ذلك اليوم، قررتُ أن أجلس بجانبكِ، على الشاطئ الخشبي. وأداعب ظهرك وساقيك ورقبتك. وأن أنحي جانباً عذوبة المشاعر المخدّرة. كنتُ سأدخل دون استئذان يا فيكتوار، وسأغدو خاطفكِ، كما قالت أمي، وأحظى بصفة الرجال الذين يريدون غزو النساء. كنتُ سأصبح سوقياً وعاشقاً. لكن الحديقة كانت خالية. انتظرتكِ. فلم تأتي. وشعرتُ برغبة في الموت.

أنجزتُ يومها عملي بسرعة -فالماء نظيف، وليس ثمة أوراق أشجار، ولا عصفور، ولا حورية ذهبية- وعدتُ.

وفي نهاية العصر طلبت أمي أن أستظهر لها موضوع انخفاض قيمة الأصول غير القابلة للاستهلاك، نموذج TFR والمادة R.123-179. أعطيتها العلامة الكاملة، واحتفالاً بذلك، ذهبنا للعشاء في مدينة ليل، في مطعم كاف أوفيول. طبق حساء الخضار وبوظة الهندباء ومشروب العرعر. كانت أمي جميلة، ونظر إليها رجلان، أحدهما ابتسم لي فانفجرنا ضاحكين. **هيوأنا**. كنتُ أبي وكنتُ أنا.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

كنتُ مفخرتها. لم تحدّثني عن فيكتوار، بل عمّا ينتظرني في المقام الثاني خلال بضعة أسابيع -ثانوية جديدة، وأصدقاء جدد، ومواد دراسية جديدة- كانت متأكدة.

- وأنتِ، حين لن أعود موجوداً؟

ابتسمت.

- شكراً يا عزيزي. لا تقلق لأجلي، فوالدك ترك لي من السعادة ما يكفي حياة بأكملها.

* * *

في اليوم التالي، لمحتُ مرة أخرى الشبح الأنثوي في الصالون. حجَبَتْها عني انعكاسات الضوء على زجاج النافذة. كان غابرييل جالساً مقابلها. بدا لي أنه يحاول إقناعها بشيء ما.

لكن الرأس الأشقر كان يومىء بالرفض. بندول ذهبي.

* * *

في يوم السبت الموافق للرابع عشر من أغسطس، سمعتُ صوت غابرييل حتى قبل أن أراه. كان في الخارج. يرغي ويزبد وهو يقوم بحركات مبالغة. حين لمحتها، كدتُ أختنق: كانت فيكتوار واقفة مواجهته. عارية تماماً. صفعها. رازته بنظرة لبرهة قبل أن تلتقط أشياءها وتفرّ باكية، وهي تصرخ أيضاً: أنتَ لا تفهم شيئاً! أنت لا تفهم شيئاً! وحين عرف غابرييل أنني شاهدتهما سوية، جأر باسمي، وصرخ: تعال! عُد، يا لويس! لكنني هربتُ بدوري. تعال، ليس الأمر كما تظن يا لويس، ليس الأمر كما تظن إطلاقاً! وانفجر

صوتي: فيكتوار! فيكتوار! تهدّج صوتي وانطلق محلّقاً في السماء، سريعاً كطيران السنونو، ليلحق بصديقتي التائهة، ليستردّ الفتاة التي أحببتها حباً، حباً مجنوناً.

كنتِ حبي الأول والأخير. كنتِ حبي المعذب، حبي التائه. حبي الذي لن يبادلني الحب.

* * *

صباح يوم الأحد، لم يحدث شيء.

أما في فترة ما بعد الظهر، فقد مزقت صفارات إنذار سيارتي شرطة، القوية كانفجار طلق ناري، الصمتَ المبطن للأجساد المنهارة في الحدائق والمخبولة من كحول النبيذ الأبيض، والوردي البارد الذي يشربونه كالماء، وخَدَر الأجساد المشلولة جراء عسر الهضم. ونحن مندهشان، نظرتُ أنا وأمي كلّ واحد منا إلى الآخر. فصفارات الإنذار نادراً ما تُسمع هنا؛ وكانت الرياح تحمل أحياناً معها لحنها المنفر، وهي تهبّ من الناحية الأخرى، من جهة الطريق السريع. أمّا صوت صفارات الإنذار هذه، فكانت أقوى وتقترب، وصارت قريبة جداً. ثم توقفت. أسرعتُ. انعطفتْ السيارتان على بعد أمتار من منزلنا. ترجّل منها خمسة رجال، وعلا صوت صفق الأبواب. وبعد برهة قرعوا جرس باب غابرييل.

وخلال فترة وجيزة، جاء من الحديقة مرتدياً ملابس السباحة. كان يزرر قميصه حين أمسك به اثنان من رجال الشرطة، كل واحد من ذراع.

- أنتَ غابرييل دولالاند؟

وخلال دقائق وضعوه في إحدى السيارتين، وانطلقنا كالإعصار على الفور.

فغرتُ فاهي، لكن لم تند عنه أية صرخة. ظلّ الألم في داخلي. كانت ألفُ شفرة تمزِّق حلقي وقلبي وبطني. بدا لي دمي يتبخر وحياتي تتلاشى. هرعتْ أمي واحتضنتني. كنتُ أهوي، فمنعتْ سقوطي.

وحين بدأتُ أنزلق وأسيل من بين ذراعيها، منعَت الأرض من ابتلاعي.

بالتأكيد لم نعرف ما الذي حدث على الفور.

أخلى الصمت الثقيل مكانه للتخمينات الأكثر إثارة للاشمئزاز. سمعنا أن غابرييل دولالاند أغوى طفلة. رجل في مثل وسامته يظلّ جائعاً. أؤكد لك ذلك. اغتصبها. سمعنا أنه أراد اختطافها. رجل نعرف عنه القليل في نهاية المطاف. سمعنا أن فيكتوار قطعت شرايينها بمقصات. ابتلعت أقراصاً كانت أمها تتناولها - فاليوم، موغادون، بروزاك، أسافلوي. إنها شاعرة كما تعرف، وهي تنتبه لكلماتها وليس لعقاقيرها، أوف، كلّ هذا يدعو للأسف. صبية في غاية الجمال.

وهكذا دواليك؛ كانت عذابات البعض ومخاوف البعض الآخر تهدف إلى تجنّب القدر المشؤوم. «كان ليو فيريه يغني: مَن يرى مصيبة الآخرين تهون عليه مصيبته».

قررتُ أن أرابض عند منزل فيكتوار. لكن نوافذه ظلّت مغلقة بعناد. أحياناً يضيء مصباح خلف نافذة حجرتها. وحتى المصرفي لم يعد يخرج. أمضيتُ هناك نهار الاثنين كله، ثم الليل بكامله، مثل

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

كلب صغير وفي، منهك فوق قبر سيدته - كلب شرير لم يحمها ولم ينقذها.

جاءت أمي صباح الثلاثاء حاملة ترمس شوكولاتة ساخنة وفطيرتين بالزبدة. جلست بجانبي على العشب الندي. بدرتْ منها ابتسامة حزينة وهي تحدق في وجهي. تبدو منهكاً يا لويس. تنهدتُ بقوة؛ ورحتُ أكابر: إنني بخير يا أمي، لستُ متعباً. أحرقتُ شفتي برغوة الشوكولاتة الساخنة، محافظاً على رصانتي والتهمتُ الفطائر. همستْ: عاد غابرييل هذا الصباح. انتفضتُ. وفيكتوار بخير الآن. لم يلمسها. صفعها وحسب، كما يصفع راشد أحياناً طفلاً ارتكب حماقة ليضع له حداً. حماقة؟ أصبح صوت أمي في غاية الرقة، وراحتْ تتحدث بهدوء. أرادتْ إغواء غابرييل، وأن تكون مشتهاة منه. فعلتْ ذلك كما تفعله النساء، إيفاءً لوعد قطعنه لأجسادهن. أرادت تقديم وعود بالثمل والدوار لآخر. رفَضَ. وهل كان بوسعه التصرف بطريقة أخرى؟ حاول أن يُعقِّلها. مرة، مرتان، ثلاث مرات إلى أن صفعها. عادت عندئذٍ إلى منزلها غاضبة ومُهانة. ثم ابتلعتْ كلّ الأقراص التي وجدتها في الحمام.

- سألتُ شاحباً: هل أرادت الموت؟

- أجابت أمي: لا أدري. لعلها أرادت أن تقتل شيئاً ما فيها.

* * *

لم أرَ فيكتوار ثانية في ذلك الصيف.

كتبتُ إليها رسائل ووضعتها في منزلها، لكنني لم أتلقَ قط أيّ إجابة. ولستُ متأكداً من أن أحداً أوصلها إليها.

بعد عودتها من إجازة شهر سبتمبر، سجلتْ في معهد مونت روزا في سويسرا، وشعاره **العمل فضيلة**، وهو يدعو إلى احترام آداب السلوك والأقرباء. توقفَ المصرفي عن دعم شِعْرِ زوجته واضطرّ للاقتراض لتمويل هذا المنفى.

عرض غابرييل دولالاند منزله للبيع. ثرتُ.

أنت لم ترتكب سوءاً!

- قال لي بابتسامة متعبة: سيظلّ هنالك دوماً ظلٌّ لما حدث. وسيغدو الظل في ذاكرة الناس هنا، بمرور الزمن، تهديداً.

شعَّث شعري، وأحببتُ فجأة هذه الحركة الأبوية.

- من دواعي سروري أنني تعرفتُ إليك يا لويس. فأنت شخص نقي. كامل. ابقَ وفياً.

لم نره ثانية قطّ، لكنّه يحدث لي أحياناً، أثناء مشاهدتي لفيلم **الضوء الشارد** أو فيلم **المسبح**، أن أعيدَ التفكير في أناقته الحزينة، وأن أشعر بالحنين لإيماءاته المتحفّظة كأب بلا أبناء.

* * *

أجرت أمي بضع مقابلات؛ ولم يختارونها. اجتازت مرحلة الخيبة. راحت تنظر إلى صور والدي الفوتوغرافية، استأنفت شرب المارتيني وصارت تبكي كثيراً.

أخذتُ أحضّرُ العشاء كل مساء. ثم رحتُ أساعدها، عندما تكون متعبة جداً أو في حالة سُكْرٍ شديد، على خلع ملابسها والإيواء إلى النوم. كنتُ أحدّثها دوماً عن نهاري، وهو ما كان يطمئنها: أحدنا لم يزل حياً.

لم نتكلم قط عن فيكتوار. مع ذلك، كنتُ أفتقدها. كنتُ أفتقد طفولتنا، كنتُ أفتقد أحلامنا بدراجة «البلو» الزرقاء، كنتُ أفتقد صباحات حياةٍ أمضيناها معاً.

وطفق الزمن يمضي، وبقيتُ أحبها.

* * *

في الصيف التالي -لم تحدث نهاية العالم في آخر المطاف- أصبحتْ لديَّ هيئة رجل. كنتُ طويلاً وناحلاً. راحت فتيات القرية ينظرن إليّ ويبتسمن؛ وحاول بعض الصبية ضمّي إلى عصابتهم. لكنني آثرتُ العزلة.

في ذلك الصيف، كنت أستعدّ للسفر مع أمي إلى إيطاليا. صار حالها أفضل. فقد عثرتْ على وظيفة أمينة صندوق في أوشان في مركز فيلنوف-داسك التجاري. كانت تقول لي مبتسمة ومستسلمة، كما ترى، سأستفيد من دروسي في المحاسبة! كنتُ أحب أمي، فهي قوية وضعيفة، وتحتاجني. كان لديها حلم صغير لم يتحقق في إيطاليا: أن ترى سيين وساحة بياتزا دل كامبو العامة وكاتدرائية ديومو الفخمة، بصحبة والدي، قبل فترة السيارة الإيطالية القوية.

في ذلك الصيف، شاهدتُ فيكتوار ثانية، لمدة دقيقة.

كانت بصحبة أختها بولين؛ تنقلان صندوقاً إلى سيارة قديمة. لَوَّحتُ لها. نظرتْ إليّ. لقد كبرتْ هي أيضاً؛ ولم تعُد المرأة فيها بعيدة. وجدتها أجمل أيضاً، رغم مساحيق التجميل المبتذلة -جفناها زرقاوان، وشفتاها حمراوان فاقعتان- ورغم علكتها، ورغم سروالها

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

المهذَّب من الجينز، الضيق والقصير إلى حدّ أن نسيج الجيوب كان يبرز منه، ورغم أنها كانت نسخة طبق الأصل عن شقيقتها.

ردّت على تحيتي. هل ستغادرين؟ إلى إسبانيا! وأنتَ؟ إلى إيطاليا! ضحكنا؛ كان هذا حسناً. لم يكن متوقعاً. مرتْ الدقيقة، فصعدتْ إلى السيارة، انطلقتْ بولين، وهذا كل شيء.

* * *

كنتُ أذهب أحياناً إلى منزل القرميد البرتقالي. كانت الشاعرة تقدِّم لي الشاي الإنكليزي، ونتحدث عمّا لم تعُد تكتبه، نتحدّث عنها، وعمّا افتقدته.

كانت تعطيني أحياناً قصصاً، تقرأ رسالة قصيرة، وتُظهر لي بفخر كشفَ علامات. وذات يوم، أرتني صورة لفيكتوار في مونت روزا، وخلفها المراعي الخضراء وجبل روشير-دو-ناي - إعلان مثاليّ صغير للشوكولاتة بالحليب. كانت قد بلغت للتو السادسة عشرة من عمرها، وقد قصت شعرها قصيراً، وزمردتاها تتلألآن، وابتسامتها ساحرة، سعيدة. لم أستطع أن أمنع دموعي.

وعدْتُ الشاعرة أن أعيدها ذات يوم لتعيش بيننا.

* * *

منذ عام لم تعُد فيكتوار إلى سانغان. فضلتْ قضاء عطلتها في سويسرا، عند صديقاتها في المدرسة الداخلية، بعيداً عن صيفها المخزي. رحتُ أكتبُ لها أحياناً رسائل ظلّتْ حبراً على ورق.

- كانت أمي ترجوني: التقِ بفتيات، اعشق، انسَ الماضي، انسها.

كنتُ أبتسم.

- يناسبكِ أن تقولي لي مثل هذا الكلام، يا سيدة الحب الأوحد.

في السنة التالية بعد الثانوية العامة، دخلتُ كلية الآداب المعاصرة في جامعة ليل الثالثة. بحثتُ لدى بودلير وبروتون وميشيليه ويونيسكو عن الكلمات اللطيفة التي عاهدتُ بها فيكتوار. تلك التي ستجعلها عاشقة.

وأخيراً في 14 أبريل من عام 2004، يوم بلوغها سن الثامنة عشرة، رحتُ أحمل وردة كل يوم إلى الشقّة التي تسكنها مع مستأجرة أخرى في شامبري.

كنتُ في العشرين من عمري، عمر أبي.

وردة قبس بيضاء: **إنها إعلان حبي**. نبتة قلم فحم يابانية: **اسمكِ محفور في قلبي**. كزبرة الثعلب: **أنتِ حبي الوحيد**. وردة برية: **سأتبعكِ في كل مكان**. خزامى ملونة: **عيناكِ ساحرتان**. سوسن خبازي: **عيناكِ تخبلاني**. أقحوان أحمر: **أحبكِ**. وردة الكاميليا: **سأحبك دوماً**. وردة جورية: **أنتِ في غاية الجمال**.

وأخيراً، اثنتا عشرة وردة حمراء: **هل ترغبين بالزواج مني؟**

* * *

لم أتلقّ أيّ ردّ.

ذبلتْ ورودي على ما أتخيل. ولا بدّ أن فيكتوار ضحكت كثيراً، وسخرت من الطفل القابع في داخلي الذي يسجن الراشد، ويمنعه من الخروج من البيضة.

لم أزل أسمعها تقول أحياناً «ليس لدي يدان تَخِزَانِ معك».

كانت قد غادرت في صيف سنواتها الثلاث عشرة. أخذت معها انبهاري. خِفَّتنا. ضحكاتنا الصافية. حبي الدائم. ودمها الأول.

انتظرتُها، ولم يكن لصبري وزن بإزاء وحشية الرجال الساحرة. فقد ترعرعت من دوني. أصبحت جميلة ومن دوني، جمالاً لا يمكن لأحد أن يتملكه أبداً. جمالٌ يمكن أن يسبب ألماً. أحبتْ من دوني وتأوهتْ من دوني. استيقظ جسدها كامرأة في أحضان رجال آخرين، خاطفين، لصوص، عشاق صيف يتخلّون دوماً عن غنيمتهم عند مطلع الخريف.

لم تَحُلْ دموعي الأخيرة من أن يشتدّ عودي. وخدَّرَت الضربات الماكرة التي كنت أتلقاها في الملاعب الرياضية حزني.

بحثتُ عنها في أحضانٍ أخرى، في زمن النسيان.

تهتُ في بعض العبارات الودية. وغرقتُ في ألوان شقراء شاحبة كشقرتها كانت تطلب مني وعوداً في الصباح لكنني لم أقدِّمها البتة.

توخيتُ الحذر آنذاك من الأزهار والشعر وضحكات الفتيات. لم أعد أخرج إلّا نادراً، وصرتُ أعود أيام العطل الأسبوعية إلى سانغان، وأصبحتُ ابناً بالغاً. غدوتُ ثِقلاً يُطَمْئِنُ في الحقيقة الأمهات.

علمتني أمي شيئاً أخيراً. أحزان الحب هي أيضاً شكل من أشكال الحب.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

قرنفل

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أعتقد أنَّني كنت هنا على هذا الشاطئ في أول 14 يوليو من حياتي قبل خمسة وثلاثين عاماً.

كنت أرتدي بلا شك الأفرول الصيفي وأنام على منشفة طرية، تحت مظلة ملونة، تحميني من أشعة الشمس طبقة سميكة من الكريم الشمسي، وتحميني قطعة دنتيللا محبوكة بعناية من الحشرات الطائرة النادرة. فالأولاد البكر يتحمّلون دوماً تبعات الحماسة المثيرة للسخرية للآباء الجدد.

تعاقبت فصول صيفي هنا، بين اثني عشر كيلومتراً من شاطئ مطاط -بسبب حركات المدّ والجزر الواسعة- وشقة متواضعة رطبة في شارع باريس، اشترتها جدتي حين كانت توكيه تدعى **باريس بلاج**. بقيتُ ابنة وحيدة. ورحت أعثر على صديقاتي في بعض الكتب أو الأفلام، وأحياناً بين بعض فتيات الجيران في مثل سني اللواتي استأجر أهلهم بيتاً مفروشاً لقضاء فصل فيه، دون أن يعودوا مرة أخرى أبداً. جمعتُ هنا ذكريات فطائر النوتيلا والريح العابثة التي تحمل معها المظلات والكراسي، وأحياناً أوسمة نساء يعشن

هنا؛ ذكريات نساء شابات يجلسن على الشاطئ حزينات ووحيدات، متشبثات بعربات أطفال أنيقة، بعيداً عن أزواجهن الذين لزموا مكاتبهم في مدن أخرى منجذبين إلى إغراءات أخرى؛ جمعتُ ذكريات السباحة في الماء البارد، وذكريات الضحك المجنون مع جاراتنا الصغيرات في الطابق الخامس.

ولستُ أنسى شوكولاتة **شات بلو**، والسوق الكبير المغطى في عطلة نهاية الأسبوع قرب الكنيسة وحبات الطماطم الكبيرة والهندباء المقددة.

أذكر الكثير من أيام 14 يوليو هنا، وهي أيام احتفالات. كان أبي يحكي لي بشغفٍ ممثلٍ ودقةِ مؤرخٍ عن خطبة كاميل ديسمولان في باليه رويال يوم 12 يوليو عام 1789، كي يحرض الجمهور للدفاع عن نفسه ضد العودة المحتملَة للسلطة الملكية إثر عزل بيكر. حكى لي عن المظاهرات والتدخل الرجولي للفوج الألماني في التويليري؛ حدثني عن «ذلك الزمن العاصف، الثقيل والمظلم، لحكمٍ مضطربٍ ومؤلمٍ[1]»؛ ففي ذلك الصباح من يوم 14 يوليو اتجه الجمهور إلى الأنفاليد للمطالبة بالحصول على السلاح، وشرح لي الطريقة التي فتح فيها المدافعون عن الباستيل والأنفاليد النار لأول مرة على الشعب عصر ذلك اليوم. وبعد نحو سبع عشرة ساعة، استسلمت حامية الباستيل بعد أن وُعِدَتْ بمعاملتها معاملة جيدة، وعندئذٍ اقتحم المتظاهرون الباستيل وحرروا السجناء - كان يُفْتَرَض أنْ يوجد مئات السجناء فيه، لكنَّهم وجدوا أقل من سبعة، أربعة

(1) **تاريخ الثورة الفرنسية**، جيل ميشوليه.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

منهم مُزَوِّرُون. وطفق يحدثني عن سوء الفهم الكبير الذي يصنع التاريخ، وعن المصادفات التي تُحوِّر مجرى الأحداث، وطلب مني وعداً بأنْ أبقى حرة دوماً. هل تسمعين يا إيزابيل؟ أجل يا أبي، وكنتُ أطلق له وعوداً كبيرة لا أفهم معناها.

ثم جاء يوم 14 يوليو الذي لم ينضم فيه أبي إلينا. كانوا قد أخطروه قبل بضعة أسابيع عن اكتشاف شيء خطير في قلبه؛ وجاءت نتيجة الفحوص سيئة، عندئذٍ أسكته برصاصة من مسدس براونينغ.

لم أكن محظوظة مع الرجال قط.

من توكيه، أحتفظ أيضاً بذكرى لا تُنسى حتى هذه اللحظة ولم تَزلْ مؤلمة، ذكرى قبلة الصيف الأولى على الرمال، خلف أكواخ الشاطئ الملونة. نشوتي الكبرى الأولى، أسبوعان من السعادة الصافية، ورغبة في الموت عشية كلّ يوم حين ينبغي علينا أن نفترق؛ ولياليا، يا إلهي، لياليا الحالكة ونحن بعيدان أحدنا عن الآخر، أمضيناها نكتب كلمات جديدة نتبادلها، كلمات جريئة ورهيبة، تحمل أحياناً طعم شفاهنا ورغبة أصابعنا واستعارات مذهلة لجوعنا. جيروم. لأول مرة منذ زمن طويل ألفظ هذه المقاطع الصوتيّة المدفونة. جيروم. وكنت أضيف **وأنا ملككَ**. وكان يضحك جيروم. **وأنا ملككِ**.

لطالما تساءلت عن حياتنا لو أننا بقينا معاً، لو أننا امتلكنا الشجاعة لنتكاتف معاً ضدَّ كل شيء وضدّ الرياح، لو أنَّنا انتصرنا على جبن محاولاتنا الأولى في ذلك الصيف؛ وفي ذلك المساء الأخير، كنت سأقول: نعم، نعم، ولكانت هذه النَّعَم، أعظم اعتراف لي بالحب، لكنه احتضنني فقط ووددتُ لو أذوب في ذلك

العناق، كنت سأهبه كلّ شيء لكي تخنقني ذراعاه، تخنقني بحق، حتى تكون موافقتي الأولى كامرأة هي أيضاً آخر أنفاسي.

كنت في سن الخامسة عشرة وأحلم بالموت من الحب. لكن الصباح قاسٍ والفجر بارد.

لم أكن محظوظة مع الرجال قط.

في نهاية ذلك الصيف، عدتُ إلى منزلنا الرهيب في أنستانغ قرب مدينة ليل، حيث أوقف أبي نشاز قلبه بطلق ناري. ألفيتُ نفسي في تلك الحديقة بلا أخ ولا أخت ولا أرجوحة، وبلا ضحكات فرح غير ضحكة أشباحنا. استأنفتُ الحياة التي علّمتني فيها أمي أنّنا لا نموت حبّاً. انتظرتُ هناك رسائل من جيروم لم تأتِ أبداً، انتظرتُ لباناً وأزهاراً وأغانٍ مهداة على موجات الراديو، وهدايا في 14 يوليو، وأدوات للتواصل مع الأرواح، انتظرتُ أي شيء. عندئذٍ، حين صار ينبغي أنْ أحب حباً صاخباً وتراجيدياً، تعلمتُ الصمت.

في سن السابعة عشرة، منحتُ نفسي لجيرومٍ ما، لأجله؛ وكانت تجربتي الأولى جليدية.

بعد بضع سنوات، صادفتُ زوجاً. لا تضحكوا. كان ساحراً بالتأكيد، وحتى جميلاً. نوعٌ من الجمال الذي نكتشفه نحن النساء في رجلٍ حين نكون جوعى. كانت لديه النظرة والصوت والكلمات الخرقاء؛ لديه كلّ الأفخاخ.

بعد بضع ليالي حب، وبضع ليالٍ محمومة، وأخرى عذبة، ليالي عنيفة وأخرى مواسية، سقطتُ في الحمل. أليست كلمات مضحكة. أقعُ في العشق، ثم أقعُ في الحمل، ثم أقع من علٍ.

لم يكن لديّ حظ وافر مع الرجال.

* * *

وها أنذا في سن الخامسة والثلاثين. ابن في التاسعة من عمره، مهذّب ورقيق وودود. وأمّ لم تزل شابة ومتفائلة نسبياً رغم نبوءة باكو رابان -وكان حينها أحد أفضل مصممي أزياءها- بنهاية العالم يوم 31 ديسمبر عام 1999. أي بعد مئة وسبعين يوماً بالضبط.

مع ذلك نتساءل هل يترتب عليها إلغاء عقد التأمين على حياتها! لماذا تحتفظ به إن كان الجميع سيموتون، ولماذا لا تُقام الحفلات يومياً، أو على الأقل تحويل جميع الأيام إلى أيام متعة؟

ولماذا يجب أن أعود إلى المدرسة في شهر سبتمبر إن كانت نهاية العالم ستحدث في عيد الميلاد؟ يسأل هيكتور.

وأنا لماذا لا أعيش حباً عظيماً وعاصفاً قبل الرماد؟

* * *

أعمل في ثانوية مهنية. نوع من العمل الإداري - يدعى الآن **مساعدة المدير** بحسب التوصيفات الإدارية الجديدة. أعرف أنَّهم يلقّبونني **الشرطية**. وأحياناً يرقّونني إلى مرتبة **شرطية قذرة**. أشتري قرطاسية المدرسة. أكتبُ إعلانات المناقصة لمطعم المدرسة. أهتمُ بكتابة النشرات الإعلانية والكتيبات التي تُعَرِّف بنا، ونكدسها على الطاولات في قاعات الطلبة ومعارض العمل ومهرجانات أخرى مخصصة لاكتشاف «مواهب المستقبل»، وتنتهي عموماً على الأرض - لأنَّ إلقاء ورقة في سلة مهملات أصبح حركة في غاية التعقيد.

أراقبُ دوام البعض. وأراقبُ وقاحة البعض الآخر الذين يخلطون بين التحفظ والخدمة الذاتية المجانية، خاصة بداية العام الدراسي. أفاوضُ على أسعار فواتير الهاتف ورزم الورق ومناديل الحمام والصابون وسائل تنظيف الأرضيات والمكانس والدلاء، وأدوات الميكانيك للعباقرة الصغار، وشامبو للصغيرات ملكات فرنسا المستقبليات من أجل دروس التجميل، ومصابيح توفر الطاقة.

لا أحب عملي.

أيامي تعبق برائحة الغبار وخانقة من الملل. لكنْ بعد أن رحل والد هيكتور ببرود ودون أنْ يأخذ معه أي شيء إطلاقاً -كأنّ كل ما استطعتُ لمسه وشراءه ومداعبته وقراءته وسماعه واشتهاءه قد تلوث- اضطررتُ إلى إيجاد عمل بأقصى سرعة. وقبلتُ أول وظيفة ممكنة. وكانت تلك الوظيفة.

كان زوجي قد هجرني.

نهض وابتسم لي ابتسامة في غاية الرقة لم أزل أتذكّرها. وأفلتت من بين شفتيه الجميلتين جملة قصيرة.

انتهى الأمر.

ثم توجه نحو باب منزلنا، ولم يأخذ حتى معطفه رغم الجو البارد والماطر، وخرج. تجاوز سيارتنا دون أن يلتفت. نظرتُ إليه وأنا متحجّرة ومقتولة. لم أقوَ حتى على إطلاق صرخة. ولا على الإتيان بأيّ تمرّد. ولا القيام بإيماءة يائسة. ثم تلاشى ظلّه، ومكثتُ لبرهة مديدة أحدق في مكان تَبَخُّرِ ذلك الرجل الذي كان يجب أن يحبني إلى الأبد، مهما حدث، ذاك الرجل الذي منحْتُه ابناً.

بعد بضعة أيام، ذهبتُ إلى مخفر الشرطة لأبلغ عن اختفاء

زوجي. رجل في الأربعين من العمر. أسمر. وسيم للغاية. يرتدي بنطالاً لونه بيج وقميصاً أبيض صبيحة اختفائه. لا، لا توجد علامة فارقة. راحوا يبتسمون دون خبث؛ فقط بسبب السذاجة المذهلة.

جعلني الخجل أخفض بصري.

لم يظهر زوجي أيضاً في مكتب عمله، في بنك كريدي دو نورد، 8 بلاس ريهور، في مدينة ليل، حيث اعترف لي مديره بأنَّه لا يعرف شيئاً. وأنَّ هذا الاختفاء هو إخفاق جديد له - لكنني لم أفهم ما كان يعنيه.

اتصلتُ ببعض أصدقائنا المشتركين، لكنَّهم هم أيضاً لا يعرفون شيئاً. بعضهم بدا مطمئناً، لكنَّ تفاؤلهم لم يفتأ يزيدني رعباً.

ثم مضى الزمن والأمل برؤيته ثانية تبخَّر أيضاً.

عندئذٍ أصبحتُ مبتورة من جسدٍ لن أعثر عليه. دفنتُ سنواتنا معاً في نَعش فارغ. ليس لديَّ قبر يجمعني به. ولا حجرٌ أنقش عليه أحزاني.

أمضى هيكتور العام الأول من اختفاء والده عند أمي لأنَّني كنت أبكي كلّ يوم. لأنَّ الهجر دون معرفة السبب يدفع إلى الجنون، لأنَّ المرأة عندما لا تعود مرغوبة، وتغدو مرفوضة، لَهُو إذلال وخزي. لأنَّ نصل السكين كان يحزّ يدي كل مساء في المطبخ، ويحزّ فخذي في الليل، لأنَّ ألمي راح يُكْتَبُ حتى على بشرتي، ولأنَّه يثرثر، ولأنَّه لا ينضب، ولأنَّه معقد.

في ما بعد، أغرقتُ ألمي في أحضان رجال آخرين. وعندها بدأت مأساتي مع الرجال.

كنت أتوه في أولئك الذين لا يطلبون شيئاً، ولا يطرحون أي

سؤال حول إجابتي «بنعم» التي غدت من الآن فصاعداً في غاية السهولة، ولا يطرحون أي سؤال عن جسدي المتاح، عن شفاهي المتاحة، عن تلك الأخاديد من الكلمات على بشرتي، عن حزني، حتى حين أستمتع، وحتى لو بذلت لبرهة كلّ ما بوسعي لكي يهجونني.

ثم عاد هيكتور للعيش معي. واظب على رؤية الطبيب النفسي مرة في الأسبوع ولم يزل حتى اليوم. لم نحاول أنْ نفهم. قال لي ذات يوم إنَّ والده كالشهب: نراها ثم فجأة تختفي، وهذا لا يعني أنَّها اختفت تماماً وتلاشت، لا، فهي لم تزل موجودة في مكان ما. في عالم آخر من دوننا.

أعدنا طلاء المنزل، غَيَّرنا ديكور الغرف، وأحرقنا بعض الأثاث، وقايضنا بعضه الآخر بأثاث جديد، زرعنا أزهاراً في الحديقة: الحزنبل، وهو يعني **دواء لكل قلب محطم** كما يقول ابني، والصبار، ويعني **التحمل**، ونبات الدبق، ويعني **أتغلب على جميع المصاعب**.

وعاد الضحك أخيراً. شعاع خافت من الضوء جعل الظلال ترتعش. عدنا إلى توكيه وحاولنا أن نعيش كعائلة حقيقية. الفطائر من شارع سان جان. شوكولاتة **شات بلو**، التزحلق المدوخ في حديقة آكالود، حساء السمك من عند بيرارد، النزهات في العربات الصغيرة، ومباريات المونوبولي المديدة في العشاء، حين تهب الريح وتهزّ مصدات الأمواج.

وجاء 14 يوليو الأخير في هذا القرن.

كنت أرقص منذ ما يقارب الساعتين، وأشعر بالدوار. «كم من القبلات خسرتُ/ بسبب الشراهة في الطعام، بسبب الإفراط في الشراب/ بسبب الإدمان على التدخين»، كما كتبت فرانسواز هاردي.

فوق السد، وبعد وصلة مديدة من الأغاني الإيقاعية، بدأت الأوركسترا تعزف النوتات الأولى من أغنية **خارج الفصل**، الأغنية الشعبية الجديدة لكابريل. راحت بعض الأجساد تستغلّ انسيابية اللحن للتقارب والالتصاق والانصهار، وشرعت بمبادرات تثير الجسد والشهوة، قبل أن يتذوق أحدها الآخر ويلتهمه، في ظلمة الكثبان الرملية الباردة، أو في الغرف الرطبة المستأجرة على شاطئ البحر.

رقصتُ مع بضعة رجال، لكنَّني لم أترك فرصة لأيّ منهم للذهاب أبعد من ذلك.

مع أنني كنت أستطيع القيام بذلك. فليس لديَّ زوج؛ وإنَّما ذكرى اختفاء مؤلم فقط، وريبة مطلقة بوعود الرجال من الآن

فصاعداً، وأيضاً قناعة بأنَّ الشغف وحده يستحق أن نحترق لأجله - فالحب ليس إلا ابتكاراً فاتراً لأولئك الذين يجهلون الشغف بالضبط.

لكنني كنت أستطيع القيام بذلك. فابني هيكتور موجود مع أمي في شقتنا في شارع باريس، وهو يجلس الآن على الشرفة بالتأكيد، وعلى ركبته منديل (فأنا أعرف أمي)، وعند قدميه علبة الشوكولاتة الساخنة وهو يترقّب بداية الألعاب النارية. لم يكونا ينتظرانني. وسيخلدان إلى النوم بعد الشوكولاتة ونهاية الاحتفال العظيمة، وفي عيونهم نجوم صفراء وحمراء وخضراء.

جعلتني تعاستي مع الرجال أرافق عدداً منهم. أولئك الذين لا يتكلمون ولا يطلبون شيئاً ولا يرون أبعد من الساعة القادمة؛ مضاجعة، شخص جديد، فخذان نديان، وجسدي الرطب؛ المخالب التي تنشب، الأظافر التي تترك آثاراً وتكتب قصة الخوف أو المتعة. ليس ثمة مرة أخرى أبداً. فقط دُوَار المرة الأولى؛ هذا المدى لكلّ الاحتمالات، للفجور الجامح، واليأس الشره.

ابتعدتُ عن الراقصين، وتركتُ خلفي الموسيقى والكلمات الحزينة لمغني إقليم لو-إي-غاروني.

تذبلُ المدينة
في الضباب المالح
وغضب المحيط
بات قريباً جداً

أشعلتُ لفافة تبغ أخرى، وراح الدخان يتطاير في الليل راسماً غيوماً صغيرة؛ أخذتُ أتابعها بعينيَّ حتى تلاشتْ نهائياً، كما نُتابع

بنظرنا، لفترة مديدة، حتى بعد أن يختفي، شخصاً يهجرنا.

رحتُ أمشي على الرمل البارد صوب البحر، حاملة حذائي بيدي. كان البحر بعيداً، بضعة كيلومترات ولا شك؛ لكن هديره الرتيب والأصمّ بدا قريباً جداً. حين كنتُ طفلة، كنتُ أحب المشي صوب البحر في الليل. مرة أو مرتين، بصحبة جاراتي الصغيرات وبرعاية إحدى الأمهات، وقد راودنا شعور بأننا نقترب من وحش نائم.

لكن الوحوش لا تنام أبداً. فهي تسرق الفتيات الصغيرات في الليل وتقطع أوصالهنَّ.

أزهرتْ تباشير النجوم في السماء الحالكة، هناك شمالاً صوب هارديلو؛ وراح البحر يلتقطُ كسرات عابرة منها، قطرات من الزمرد والياقوت والزبرجد تذوب فور ملامستها سطح الماء.

أَخَذْتُ أرتعش؛ كان الهواء بارداً وريح شرقية تهب.

كنتُ أتقدم صوب البحر حين انطلقت فجأة من شاطئ توكيه أولى الألعاب النارية. كانت الريح تحمل إليَّ تأوهات طفولية ومذهولة. ابتسمتُ. أنارتْ شلالاتٌ من الشهب الشاطئ لبضع ثوانٍ، ورسمتْ لي الطريق المتبقي لأصِلَ إلى الماء. تذكرتُ السباحة في فم الوحش؛ كنا نخرج منه مرتعشين بألوان زرقاء، لكنَّنا أحياء.

بعد عشر دقائق، وبينما كنتُ أقترب من خط النهاية، كشفتْ لي حزمة من النجوم الذهبية والفضية خلسةً ما بدا لي أنَّه جسدٌ ممددٌ على طرف الماء؛ جسدٌ مثل صخرة سوداء بارزة لا تتحرك.

فكرتُ على الفور أنَّ محتفلاً غَلَبهُ الكحول وأراد أنْ يأخذ حماماً منتصف الليل لكن السُّكْرَ أنهكه وتركه هنا تائهاً.

اقْتَرَبْتُ منه بحذر وفضول.

- هل تسمعني؟

في السماء، أضاءت حزمة ذهبية عابرة الجسد. كان جسد رجل عجوز، مثل شجرة هزيلة، يداه شاحبتان بلون بنفسجي تقريباً، وأصابعه مغروسة في الرمل شبيهة بعشرة جذور صغيرة.

توقفتُ على بعد خطوتين منه، ورددتُ:

- هل تسمعني؟

ظلَّ الجسد دون حراك. إحدى القدمين كانت مغطاة بجورب والأخرى عارية. بنطاله مشوّه - لكن تفصيلته جميلة على نحو واضح. قميصه الأبيض مَزَّقَتْهُ قِطَعٌ من المحار والأصداف. لم يكن ثمة قارب في الأفق، ولا أيَّة زجاجة بقربه. تقدمتُ خطوة أخرى. جثوتُ فوق الرمل البارد. لم أتجرأ على لمسه. عَثَرَتْ يدي على عصا ورحتُ أربتُ بها على كتفه. أقوى فأقوى.

صرختُ حين تنحنح؛ صوتٌ هلامي، صخرة ضخمة تغرق، حنجرة مسدودة.

كَشَفَتْ لي نهاية الألعاب النارية عندئذٍ وجهه. خدان غائران، وجنتان بارزتان، أرستقراطيتان. بشرة ذات لون قبيح. سَحَبْتُهُ بعيداً عن الماء - يا إلهي ما أَثْقَلَه. مَدَّدْتُه على جنبه، وغطيتُ صدره بسُترَتي الخفيفة ورحتُ أركض نحو السد، نحو أضواء المدينة، نحو الأغاني.

ركضتُ حتى تقطعت أنفاسي.

لعلني أُنْقِذُ رجلاً. رجلاً عجوزاً.

حين وصلتُ إلى السد، تمكَّنتُ من إبلاغ رجال الإسعاف وقفز ثلاثة أو أربعة متطوعين لم يكونوا في الحفلة إلى شاحنتهم الكبيرة، أجلسوني في المقعد الأمامي لكي أدلهم على مكان الجسد. بالتأكيد لم يكن الجسد قد تحرك من مكانه. بدأتْ المياه تلعق قدميه الآن بسبب المد. وأَخَذَتْ بضع موجات متهورة تصلُ إلى ركبتيه.

قفز المسعفون من سيارتهم وأخرجوا معدات الإسعاف؛ جهاز لإعادة التنفس، لإعادة الحياة. كانت حركاتهم هادئة ودقيقة. وفي غضون أقل من دقيقتين، أصبح الرجل عارياً ومُدَثَّراً بغطاء عازل؛ وَوُضِعَ قناع الأوكسجين على وجهه، وزُرِقَ بحقنة في جسده الأزرق، الخبازي في بعض المواضع، مثل دنتيللا بالية مُعَلَّقَة بحبل. صاح أحد المسعفين في جهاز البث وأعطى سلسلة أرقام؛ بدا كل شيء حماسياً. فهمتُ أنَّ طائرة مروحية ستأتي لنقل العجوز إلى المشفى. كانوا يُدَلِّكُون قلب الغريق. يحاولون إعادة النبض إليه. راح المسعفون يتسولون بضع ثوانٍ من الحياة أيضاً. هيا، هيا، من

فضلك، ابقَ معنا. ابقَ، ستفوتُكَ حفلة الرقص. ابقَ، سيكون الطقس جميلاً غداً. يقولون أي شيء لإبقائه معلقاً بالحياة. تكاد زمجرة الغول الذي يصعد نحو اليابسة تطغى على لعنات الرجال وجهودهم العابثة. ثم سمعنا من بعيد الهدير المرعب للمروحية. أضواءٌ دوارة شبيهة بنصل السكاكين مَشَّطَتْ الشاطئ كما لو أنَّها تبحث عن هارب. لَوَّحْنا لها بأذرعنا يائسين، وفجأة وصلتْ، مثيرةً سحابة رمال وغبار خدشت وجوهنا. حدث كل شيء عندئذٍ بسرعة. كحفلة راقصة صاخبة، كضوضاء الجحيم، كرقصة حرب، كنهاية سريعة للعالم. ثم أقلعتْ المروحية بأقصى سرعة وهي تحمل الجسد المحتضر وأَمَلَ المسعفين ورغبتي بالرقص.

أعادوني إلى السدّ حيث كان مزيج سيئ من الكحول واليأس يجعل البعض يترنحون. كان معظم المحتفلين قد عادوا، بجسد مملّح وعيون منتفخة، إلى العزلة المرهقة.

حدثني أحد المسعفين عن انخفاض درجة حرارة الجسم وبطء خفقان القلب ومعدل درجة الحرارة - أصبحتْ فرص نجاة الرجل العجوز ضئيلة وصار الأمر يتعلق بالسرعة بعد الآن. أرسلوه إلى أقرب مكان، إلى مركز كالو-هيليو في بيرك-سور-مير، وهو الآن في قسم الإسعاف يُدفئونه بهدوء، ويصغون إلى لغة جسده المنهكة ويختبرونها.

ابتعدت سيارة الدفع الرباعي الحمراء الكبيرة؛ وقفلتُ راجعة إلى منزلي.

في إحدى مواقف السيارات الفسيحة، شاهدتُ أسرة تهمّ بالصعود إلى السيارة لكنَّ الفتاة ترفض المغادرة، وتريد البقاء لفترة

أيضاً. أمها، وهي امرأة ناحلة ذات بشرة خزفية شاحبة تحت ضوء المصباح، صرختْ «هذا يكفي!»، فهزّتْ الصبية التي لم تبلغ الرابعة عشر كتفيها بازدراء عاشقةٍ أُهينَتْ للتو، قبل أن تصعد إلى السيارة. ابتسمتُ. كما لو أنَّ طفولتي أصبحت قديمة. كما لو أنَّ حبي الأول المملوء بالوعود والممكنات بات قديماً. تذكرتُ أنَّني أنا أيضاً أبديتُ هذا الازدراء المتقزّز ذاته حين عدتُ إلى المنزل في ذلك المساء الشهير وقلتُ لأمي: لقد انتهى كل شيء، سيرحل غداً، ولن أراه ثانية، سأموت. همستْ لتواسيني - لأنَّ واجب الأم يحتّم عليها المواساة: لا أحد يموت من الحب يا عزيزتي. لا يحدث هذا إلّا في الكتب، وفي الكتب الرديئة تحديداً.

عندئذٍ أبديتُ ازدرائي الكئيب.

كان هيكتور نائماً حين وصلت. أما أمي فكانت تقرأ كتاباً لا يموت فيه المرء بسبب الحب، وإنَّما يتشبَّث بالحياة مهما كان الثمن. كانت تنتظرني.

بعد ذلك، في حجرتي الصغيرة الرطبة، تحت الغطاء، هَدَّأْتُ نفسي. ثم عضضتُ شفتي لكي لا أصرخ.

* * *

سافرتُ في فجر اليوم التالي إلى بيرك.

أردتُ معرفة أخبار غريقي. رغبتُ بلقائه ورؤية وجهه في الضوء، بلا رمال ملتصقة على بشرته حيث كانت ترسم ظلالاً مخيفة وحكايات مقلقة. أردتُ أن أعرف.

قدمتُ نفسي إلى مكتب الاستقبال. كانت الممرضات لطيفات. غريقي نائم. حالته مستقرة. تجاوزَ مرحلة الخطر. توجهتُ إلى البهو

للحصول على فنجان قهوة من آلة تبث صوتاً مزعجاً، وجلستُ على أريكة قديمة، منهكة من القلق، وشعرتُ بإعياء مفاجئ في جسدي، كأب مرهق استكان للتو. راح الناس ينظرون إليَّ بطرف عيونهم، تماماً كما كنتُ أنظر إلى الآخرين الذين ينتظرون هم أيضاً، يتفاءلون ويأسون. كان كلّ واحد يتأمل ويترصّد علائم ألم أكبر من ألمه، وتعابير حزن تجعل من حزنه أكثر قابلية للاحتمال؛ كلّ واحد يقدّم نُذْراً كما لو أنَّه صلاة: يعاهد نفسه سراً أن يتوقف عن التدخين أو الشراب أو الكذب، يُبدي استعداده للتضحية بسُلامِيته، بإصبعه، بأسبوع أو أسبوعين من حياته، مقابل مغفرة أو معجزة.

كانت بياف[1] تغني: «اتركوا لي يوماً، يومان/ ثمانية أيام/ قليلاً من الوقت/ وقتاً للعشق/ للبوح/ اتركوا لي وقتاً/ لصنع الذكريات/ يا إلهي، أوه! أجل/ يا إلهي! اتركوا لي ذلك الوقت/ لأملأ قليلاً حياتي!» لكننا لا نصغي البتة إلى كلمات الأناشيد، حتى حين تُحَذِّرُنا.

حين مددتُ يدي لأضع الفنجان، بعد أن ارتشفتُ قهوتي، توقف قلبي.

* * *

بعد هذا المساء الأخير، في ذاك الصيف، صيف عامنا الخامس عشر، لم نتراسل قط. ولم نسعَ قط للتواصل. ولا للتلاقي. افترقنا بلا وعود، بلا دموع ولا مقدمات، بلا قبلة أخيرة. كان قد نهض،

(1) كلمات ميشيل فوكير.

ونفض الرمل عن ذراعيه وسرواله وانطلق نحو المدينة، دون أنْ تحين منه التفاتة إلى الخلف -الصِّبْيَة لا يلتفتون إلى الوراء البتة، فهم يخافون أن يعودوا. أما أنا، فلم أحاول اللحاق به- الفتيات لا يجرين وراء صبي يغادر، لأنَّهنَّ يخفنَ ألّا يعود.

حين عدتُ، قالت لي أمي أن أحداً لا يموت أبداً من الحب، لكنَّني لم أشأ تصديقها.

توقف قلبي، لأنَّه رغم مرور السنين، رغم الضوء الوحشي لمصابيح المشفى الذي يثقب الوجوه لدرجة أنَّه يجعلها قبيحة، ورغم قسوة الزمن الذي يصيب القسمات بالهزال، ورغم التعب الذي يجعل العيون حمراء، والسحنة كابية، والهالات حول العيون قبيحة، ورغم الإنهاك الذي يُثقل الخطى ويُبَطئها، رغم كل ذلك عرفتُ أنَّه هو، هناك، على بعد أمتار مني، بردائه الأخضر.

لم أصرخ. لم أتحرك. لم تستطع يديَّ أنْ تعيد فنجان القهوة. كنت مذهولة وتائهة. تمنيتُ آنذاك نظرة، بالتأكيد نظرة أبي، لتخبرني بما ينبغي عليَّ فعله، لتخبرني كيف يمكنني البقاء حرة في تلك اللحظة، وكيف يمكنني أن أمنع نفسي من الغرق في الأشواق والماضي والصمت وكلّ الأحلام المخنوقة. كيف أبقى على مسافة من هذا الحنين الذي يدمّرني ويذلني - لأنَّه لا يعرف ما أصبح حالي، من دونه بالضبط، من دونك، أليس كذلك، **يا سيدي الحنين**[1]، أيُّها العاهر الجميل.

---

(1) كلمات وألحان جورج موستاكي (الحنين باللغة الفرنسية مؤنث وترجمتها الحرفية: يا سيدتي الحنين أيتها العاهرة الجميلة).

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

لكن جيروم التفت وابتسم وسار نحوي، فأخذ قلبي يخفق.

لم نتعارف؛ عندئذٍ لم نتصافح ولم نتعانق. اقترح فوراً أن نتناول القهوة، وضحكنا حين تحركت يدي المتحجّرة على كوب القهوة. وقفتُ وتأهبتُ للحاق به في حين أنَّه لم يسألني عن شيء. تبدين متعبة. رَدَدْتُ خصلة شعري إلى مكانها؛ أنقذتُ رجلاً هذه الليلة. ابتسمَ؛ أنا أيضاً. بعد بضع خطوات، أصبحنا بعيدين عن الآخرين، عن النظرات المواربة، عن التنهدات المتألمة؛ وأبعد من ذلك، في الممر، وضعتُ يدي على ساعده برفق، بمنتهى الرفق، دون ضغط، ودون أيَّة كلمة، ربما لأتأكد أنَّه كان هو بالفعل، كما يقرص طفل نفسه ليتأكد أنَّه في عِلْم وليس في حلم.

حين همستُ **جيروم**، همسَ **وأنا ملك يمينكِ**.

نزلنا إلى كافيتريا المشفى. في تلك الساعة لم يكن يوجد فيها أحد. ما عدا مستخدمة تضع أكواماً من الصحون والأغطية والأطباق البلاستيكية في بداية ممر الجائعين؛ وهناك، قرب النوافذ الزجاجية مقابل البحر، امرأة مسنّة غندورة تُشَوِّهُ عوداً بلاستيكياً بعصبية، كأنَّها تصنع منه سُبَّحَة. شفتاها ترتعشان، وعيناها تلمعان.

تناول جيروم عبوة مياه لكنَّنا لم نكن نشعر بالعطش.

كان يطفو على وجهه كلّ ما أحببته فيه رغم تعب السنين. ازداد وزنه قليلاً، وأصبح ألطف ممّا هو عليه في ذاكرتي؛ ولو أنَّ أحدنا تجرأ آنذاك على الإتيان بالحركات التي تبتر الطفولة وتدفعنا إلى هاوية حياة الراشدين، لكان بوسعي حينئذٍ أنْ أموت لأجله وأترك كلّ شيء وأتوه.

نظر أحدنا إلى الآخر مطولاً ومليّاً، كصديقين قديمين في

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

المدرسة، لطيفين وفضوليين، كعاشقين قديمين متهورين؛ وكانت هذه النظرة في آن معاً ضِيْقَنا وانفعالنا، إخفاقنا وخيانتنا. فتح فجأة فاه. أنتِ. لكنه لم يستطع المتابعة. عندئذٍ، مددتُ يدي فوق الطاولة التي تفصلنا. بحذر. لامَسَتْ أصابعي أصابعه. تمازجت معها ثم تجذَّرت في راحة يده. وبقينا صامتين لفترة مديدة.

ثم رَسَمَتْ أصابعنا كلمات على بشرتنا. اسْتَحْضَرَتْ ذكرياتنا ومخاوفنا المنصرمة. كَتَبَتْ قصة لقائنا الطريف.

بعدها اصطحبني إلى غرفة غريقي. كان جسده النحيل يشبه عنكبوتاً - شَكَّلَتْ أنابيب الحقن أطرافه المرعبة.

- قالت الممرضة: استيقظَ منذ قليل لبرهة. ولم يتلفّظ إلّا بكلمة واحدة. روز. بعد ذلك، انزوى رأسه جانباً، كدمعة. أخدود من الزئبق.

* * *

في العصر، التقينا ثانية على باب المركز. كان يرتدي سروالاً قصيراً وقميصاً، وبدت بشرته برونزية. كان الحَمَّام قد غسلَ التعب ومحا إرهاق ليل طويل أمضاه في إنقاذ رجل عجوز وفي العناية ببعض سكارى الحفلة الراقصة، طعنتا سكينٍ وسقوطٌ عن دراجة نارية تسبّب بكسر الساق في ثلاثة أماكن.

ذهبنا إلى منتزه البروفيسور دوبيير، وقطعنا ثلاثة كيلومترات على امتداد الشاطئ. كان الجو رائعاً. هناك على الشاطئ، كانت الأمهات يدهنّ أجساد أطفالهن بالكريم، ثم أجسادهنَّ، وهنَّ ينظرنَ إن كان ثمة من يراقبهنَّ؛ عندئذٍ كانت حركاتهنَّ تغدو أكثر لطفاً،

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

وحميمية تقريباً، وفكرتُ بجسدي الذي لم أعد أُعَرِّضه للشمس، وصرتُ أحافظ عليه مغطى، حتى في الظلمات اللطيفة لغرف الفندق، لأبواب العربات، في ظلمات النفوس الحالكة، مغطى تماماً منذ أنْ كتبَ نصلُ سكينٍ ألمي عليه حكايتي، ومأساتي المعروفة، مغطى في جميع الأيام والليالي التي تلت هجران زوجي.

راح جيروم يتحدث عن نفسه. عن حياته. راح يتحدث بسرعة. أحياناً كنا نتجنب ضاحكين راكب دراجة صغير يقود بأقصى سرعة في المنتزه. أو سيارة موجهة بجهاز تحكّم. حكى لي عن انتقاله في العام الذي تلا صيفنا. أقامت أسرته بالقرب من مدينة صوفيا أنتيبولس حيث وَجَدَ والده فيها عملاً كمهندس. لا تسأليني ما معنى هذا، قال ضاحكاً. ابتسمتُ؛ إنَّها مشتقة من الكلمة الفرنسية القديمة أنجينيور (Engigneor)، وهي تعني مصمم أدوات الحرب. انسابت نظرة كلّ واحد منا نحو الآخر. تواطؤٌ قديمٌ ظهر فجأة. ثم عرج على مسيرة حياته. منزل صيفي في قرية فالبون قرب ساحة الأركاد. فصول الصيف على شواطئ غاليه في مدينة نيس، في سان-لوران-دو-فار، نزهات حتى غارد فرينيه، إفطارات على الشرفة عند سينيكيير، الأعوام التي حصل فيها والده على علاوة؛ الصرخات الهستيرية على شاطئ البحر المتوسط بسبب قناديل البحر (أوريلي مون وبيلاجي، اسمين لنوعين سامّين، لكنَّهما جميلين كأسماء الأزهار)؛ نهاية المراهقة الفرحة؛ بضع غراميات لطيفة في إهاب بشرة دافئة، بنبرة غنائية، وضحكات صافية.

بعد ذلك غادر لدراسة الطب في تولوز، تسع سنوات دراسية؛

مشاكسات، مُزْحات، شكوك، ومشاهد في قسم الإسعاف تصلح كحلقات في مسلسل **حالات طارئة**. ثم قصة حب. كونستانس، همسَ، متلذذاً بكل مقطع صوتي كأنَّه حبة ملبس، **كونس-تان-نس**. سألتُه: ألديكَ أطفال؟ ماتيو وزووي. ثماني سنوات وخمس سنوات. هو ذاك. عشرون عبارة لحياة بأكملها، سعادة صغيرة كاملة، متجانسة.

- وأنتِ؟

خفق قلبي. أنا؟ عرفتُ الشغف، عرفتُ الخيانة، عرفتُ عنف الرجال، عنف حبهم التافه الذي ينطفئ حين نقول لهم نعم، وحين يقومون بالإيلاج، حين يغرزون سكينهم؛ عرفتُ الرغبة بالموت من أجل الحب في سن الخامسة عشرة معك، ولم أُشْفَ منها أبداً، لم أُشْفَ منها، تهتُ وضعتُ؛ وفيما بعد، في الثانوية، منحتُ نفسي لأول جيروم صادفته حتى أستطيع لفظ اسمك في تلك اللحظة بالذات، في لحظة دمي وخوفي الأول كامرأة، **جيروم، جيروم**، لفظتُ اسمك، أوه أجل لفظته، وردّدته طيلة فترة الألم التي سببها لي ذاك الجيروم، وعندها لم أعُد أشعر بأيّ خوف ولا بأيّ برد؛ وبعد ذلك حين انسحب مني، بائساً وصغيراً جداً، تركتكَ ترحل، أنتَ، حب حياتي العظيم، تركتكَ ترحل برفق، كالماء؛ طار اسمك، ثم تسرّب من تحت باب الغرفة وانتهى الأمر، وبكيتُ، بكيتُ، وإذ يُقال إنَّ الحزن يمكن أن يُنتج مئة لتر من الدموع في حياة كاملة، فإنني ذرفتهم في عصر ذلك اليوم.

لكن لا، لم أتجرأ. أحببتُ فقط:

- أنا؟

صبيٌّ فاتن يدعى هيكتور، في التاسعة من عمره، وأبوه رحل منذ بضع سنوات.

لكن فجأة ينادونه على اللاسلكي. الرجل العجوز استيقظ للتو. يردد كلمة واحدة فقط. روز.

* * *

عدتُ إلى توكيه.

تركته مع الحالات الإسعافية، مع نداءات جهازه اللاسلكي، مع هذه الـ كونس-تان-نس التي يتلمّظ بلذة مقاطع اسمها الصوتية، مثل حصيات ملساء صغيرة؛ تركته مع ابتسامته الجميلة، وطفليه الرائعين. لم يحدّثني عن سيارته، لكنَّني تخيلت بسهولة أنَّها سيارة أودي كبيرة، وأنَّ سيارتها فيات صغيرة، وأعتقد مربية إنجليزية للطفلين، شاحبة وصهباء بالتأكيد (بريغتون تبعد أقل من سبعين كيلومتراً كخط نظر) ومغرمة به قليلاً. لم يقل لي إنَّني لم أتغير، وإنَّني لم أزل على حالي، جميلة دائماً؛ وأنَّه فكَّرَ بي أحياناً وغالباً ولا سيما كل صيف، في 14 يوليو، منذ واحد وعشرين عاماً، منذ قبلاتنا وكلماتنا الجديدة، الجريئة والمخيفة، تلك الكلمات التي كان لها طعم شفاهنا وشهوة أصابعنا؛ نظر إلى جهازه اللاسلكي، قال إنَّهم يحتاجونني، وذهب.

* * *

عدتُ إلى توكيه.

كانت أمي تنتظرني بفارغ الصبر؛ وكان ابني مغتبطاً. لقد بنى

قصراً على الشاطئ في المكان الذي اعتدنا الجلوس فيه، في أعلى جادة لويزون-بوبي. وحَفَرَ الخنادق، وممرّ المتاهة. ثم ذهب مراراً وتكراراً وأحضر الماء من البحر، لكن الرمل كان يمتصه كورق النشاف؛ مُحبطاً كلّ جهوده؛ وزيَّنَ البرج بكلّ أنواع الأصداف والمحار. حين جلستُ بجانبه قال لي: انظري يا أمي، هنا تسكنين يا أمي، في البرج، وإلى هنا يأتي الأمراء باحثين عن الأميرات، وأنت أميرة، أمي أميرة، أليس كذلك يا جدتي؟

ابْتَسَمَتْ أمي ابتسامة باهتة، ابتسامة حنين لذلك الافتتان الذي لم يجرف على ما يبدو نساء عائلتنا - أو بالأحرى لم يتجاهلهن. حين انسحب البحر بلباقته المصطنعة، بهيئة من يودّع ضيوفه، وَضَّبْنا خيمتنا وجمعنا أمتعتنا وتوجّهنا نحو السد.

مرة أخرى كانت سهرتنا مبتذلة، ومتوقعة، ومباراة في لعبة المونوبولي. شوكولاتة ساخنة. قصة. عناق. وحين أزفت ساعة نوم هيكتور، وجدتُ نفسي مع أمي وحيدتين، ولا أريد أن تفهموا من كلامي «وحيدتين معاً» لأنَّنا كنَّا اثنتين؛ لا؛ أقول **وحيدتين** بمعنى عزلتين، عزلتها وعزلتي؛ عزلتان هائلتان؛ فبعد أن التقيت جيروم اليوم ووضعتُ يدي بصمت على ساعده ومشيتُ معه بعد الظهر تَحَدَّدَتْ التخوم الفسيحة لهذه العزلة وفراغ حياتي في غيابه وإمكاناتي الضائعة. فتحتُ زجاجة نبيذ. وعلَّقَتْ أمي بالطبع: أنت مجنونة يا ابنتي. شربتُ القدح الأول كالماء. تمنيتُ لو أنَّني شربتُ معه وثملت وسقطت، لو أنَّني سقطت بين ذراعيه. وددتُ لو أنَّه توقف عن الحديث عن حياته الجميلة منذ قليل، أثناء النزهة، لو أنَّه نظر إليّ وعرفني. لو أنَّه تذكّر شفتيَّ الزرقاوين اللتين ارتعشتا حين قطف منهما قبلتي الأولى. لو أنَّه

تذكّر لون مايوه السباحة - الذي اخترته لأجله من متجر **مود دو باريس** الواقع في شارع إيسكرمواز بمدينة ليل، وفَضَّلْتُه على الجميع لينسجم مع لون عينيه وأيضاً ليخفي الندبة القبيحة بسبب عملية الزائدة - ولو أنَّه تذكر لون طلاء الأظافر **الوردي** الذي اسْتَخْدَمْته لأول مرة وأنا أفكر فيه. هل يتذكر ذلك؟ توقفي، قالت لي أمي، بينما كنتُ أَهُمُّ بسكب قدح نبيذ آخر. توقفي. ووضعتُ الزجاجة على الطاولة الواطئة، فعلتُ ذلك من أجل جيروم؛ فعلتُ ذلك كما نطلق الوعود في صالات الانتظار في المشافي؛ وفي أماكن التيه. سأتوقف عن التدخين وسيعيش ثلاثة أشهر أخرى. لن أكذب ثانية وسيصحو. سأضع هذه الزجاجة وسيستعيد قلبي. خذْ يا جيروم. خذ ما وهبتُه لك منذ عشرين عاماً. انظر. أشعرُ بالبرد. أنتِ تخيفينني يا إيزا، قالت لي أمي. عليك أن تخلدي إلى النوم.

* * *

بعد اختفاء زوجي، أخذت السماء تمطر؛ فكرتُ عندئذٍ أنّ المطر تَدَخَّلَ هو أيضاً في الأمر، وأنَّه يزيل آثار خطواته الأخيرة؛ ويمحو بصماته على الطريق ليحرمني منه.

كنتُ قد عرفتُ آنذاك الظلال الداكنة، ونصلَ السكين في اللحم، لكن سبق لي أن رويتُ ذلك.

لم أره ثانية قط؛ ولم أسمع عنه خبراً. فقط جاءتني رسالة بعد ما يقارب العامين. موقّعة من محامي. ترك لنا كلّ ما كرهه فينا: المنزل الجديد في أنستانغ، وكل ما يحتويه، كل الذكريات. وقّعتُ الأوراق، ووافقتُ على الطلاق، وضحكتُ من هزيمتي وذلي.

حين عاد هيكتور ليعيش معي، كانت أمي تمضي معظم الوقت في المنزل. كانت قلقة؛ أوه، عليه أكثر ممّا عليَّ. كانت تريده صلباً وحياً. لم تعلّمه أنَّ المرء لا يموت من الحب؛ وإنما علّمته لغة بعض الأزهار، لأنَّ ذلك يجعل الرجال مهذبين، كما صرحت، ورجالاً نادرين، ولذلك حصلتُ في عيد الأم على باقة من أزهار خرم الإبر البحري، **أنتِ أكثر من جميلة**؛ وفي عيد ميلادي على زهرة الكتان، **إنني متأثر بلطفك**؛ وفي عيد صعود العذراء على أزهار التاماريس البيضاء، **لسوف أحميكِ**. قَدَّمَ لي قصوراً من الرمل، ورسومات فرسان، وقصائد مقفاة لا تُصَدَّق؛ وتلذذتُ بفترات طفولته المتأخرة، تلك التي تدعو للاعتقاد بأنَّه سيبقى دوماً لأجل أمه وسيحميها وسيحبها، لكن سرعان ما تأتي فترة المراهقة والذعر، فتتقطع هذه الأغصان، وتبدأ محاولات الطيران الأولى، والسقطات الأولى اللامتناهية.

أنظرُ إليه وهو نائم.

غفا منذ قليل أمام التلفاز، وهو يشاهد فيلم **القصر في السماء** للمرة المائة. كانت بشرته دافئة وذهبية. يتنفس بهدوء. أحياناً ينتفض وأحياناً يبتسم. لم نعد نتحدث عن والده. جعل منه شهاباً، في مكان ما فوقنا.

* * *

وضعتُ هيكتور (وأمي) في حديقة أكوالود -يعشق النهر بدرجاته التسع والعشرين ومنحدراته السريعة، يُحب أنْ يصرخ من خوفه- قبل أن أعود إلى معهد شالو هيليو في بيرك.

كان وضع العجوز مستقراً.

وما عدا اسم روز، لم يتلفظ بأية كلمة أخرى.

ومن بين اثني عشر ألفاً وثمانمئة واثنين وخمسين من أسماء الشهرة الأكثر شيوعاً في با-دو كاليه، بين عامي 1916 و1940، وجدتْ دائرة الأحوال المدنية بالتأكيد مئة وخمسة وثلاثين اسم رووز وثمانية وعشرين روزيان، لكنَّها لم تجد أيّ اسم روز.

جاء رجال الشرطة لاستجوابه ومعهم طبيب نفسي ومترجمة لغة إنجليزية إذا دعت الضرورة. عبثاً. عرضوا صورته (كأنَّه وجه ميت) على المصطافين على الشاطئ، في الطرقات، في مداخل المباني، في الشات بلو، في الميغناريديز -مطعم الفطائر في شارع سان جان- في المطار، على موظفي كازينو دو باليه، على موظفي ويستمنستر حيث نادل في ماهوغاني، حانة الفندق، تردَّدَ لبرهة، ثم قال لا، لا، هذا لا يوحي لي بشيء، يمرّ الكثير من الناس في هذا الفصل، وهم لا يتشابهون بشيء، أو يتشابهون بكل شيء. وأيضاً لم يؤد تحليل الدي إن إي إلى أية نتيجة. لم تُبْلِغْ أي من شرِكات العبَّارات عن فقدان رجل في البحر. لم يره أحد ولم يتعرف إليه أحد، ولم يعرف أحد ما كان يفعله هذا الرجل العجوز على شاطئ البحر البارد في ذلك الليل من يوم 14 يوليو الأخير في هذا القرن.

أحضرتُ وردة جورية حرصت أن أنزع أشواكها، وهو ما جعل البائعة ترمقني بنظرة مشوبة بالسخرية. أهي لإصلاح علاقة حب؟ سألتني. ابتسمتُ. جميلٌ سؤالك.

أجل، هو كذلك. أرمم علاقة حب.

في ظلمة الحجرة الباهتة، كان الرجل العجوز نائماً، تربطه الحُقن بالحياة، كأنَّها حبال سرية. وضعتُ وردتي على صدره وجلستُ قرب السرير. راقبته لبرهة كما راقبتُ ابني النائم بالأمس. كان ينتفض الانتفاضات ذاتها أحياناً؛ وتبدرُ منه الابتسامات ذاتها أحياناً أخرى. ثم نظرتُ إلى الخارج، إلى الشاطئ الفسيح، إلى الرمل الرمادي، كان الآباء مع أطفالهم المرضى، المصابين برضوض وآلام في المفاصل، بعضهم توقف عن النمو، وبعضهم الآخر يحاول تعلم المشي من جديد واستعادة قدرته على الوقوف، وكانوا يغرسون أيديهم في الرمل بالفرح نفسه لأولئك الذين لا يكابدون الألم، وبلا شك تراودهم أحلامهم ذاتها. فكرتُ بهذه الجملة لديغول أمام جسد ابنته آن: «إنَّها الآن كالآخرين» وفكرتُ في الألم الذي يسببه الأطفال أحياناً دون أن يعرفوا.

يرسم الصيف دوماً حيواتٍ فرحة على الشواطئ. وعندما يأتي وقت العودة تتعقد الأمور. خاصة عندما يتواعدون على المجيء ثانية واللقاء مرة أخرى، وعندما يَعِدُ بعضهم الآخر ألّا ينسونهم أبداً.

في السماء الزرقاء الصافية تماماً، كانت طائرات ورقيَّة تحلّق على ارتفاع عالٍ، مشكّلةً نجوماً ملوّنة. وهناك في الأسفل، ثمة خيالة يتّجهون نحو شاطئ آيرون نوتردام وميرليمون. وأبعد من ذلك، أشرعة منتفخة في البحر. هنا، نساء يخرجنَ من محلات بيع الشوكولاتة. وهناك، بضعة رجال يمارسون الإغراء. المشهد كله يشبه لوحة فرحة لكايبوت. لوحة ديغاس عن الصيف.

فجأة، فتح الرجل العجوز عينيه، ورأى الوردة. عندئذٍ ابتسم، ودون أن أعرف السبب، منحتني ابتسامته على الفور الرغبة في

البكاء. بحثتْ عيناه الصَّافيتان، فوجدتاني. حاولتْ أصابعه الرقيقة الإمساك بالوردة. ساعدته. حملَها إلى فوق وجهه ليشمَّها.

ومن جديد، ندَّت عنه ابتسامة حزينة ساحرة.

حين تحدَّث أخيراً، كان صوته ضعيفاً كخيط دانتيل قديم جداً على وشك الانقطاع:

- آه، إنَّها **قرنفلة**، واحدة من أبرز ورودنا. (أوشك على الاختناق. أصلحتُ الوسادة خلف رأسه) انظري إلى هذا الصباغ الأرجواني الكرزي؛ تخدده التماعات ذهبية. أوه، شكراً يا آنسة. شكراً.

أغمض عينيه - سأعلم بعد أنَّه لن يفتحهما ثانية. كانت آلاف الصور تمرّ تحت جفنيه الرماديين المجعدين. قدَّم لي بضع كلمات، كأنَّها أزهار. كانت تشكّل باقة غريبة.

قنابل. لقاء. حب/ دوماً. شارل ترونيه. كورا فوكير. أرميستيس. روز.

استقرَّت ابتسامة رقيقة على وجهه الهزيل، ابتسامة انتزعت دموعي الأخيرة حين غادرتُ الحجرة.

لم يحالفني الحظ قط مع الرجال.

* * *

لديَّ هيئة توحي بأنَّني أفقد دوماً من أحبهم؛ لكن أحداً لم يلاحظ ذلك في المشفى.

كنتُ أنتظر قهوتي أمام الموزّع الآلي حين استقرّتْ يدٌ على كتفي.

جيروم.

- تعالي، لديَّ قهوة لذيذة في مكتبي.

تابعتُ في المكتب ذرف دموعي الغزيرة والباردة، بينما يقف أمامي حبٌّ مجنون يعود إلى سن الخامسة عشرة، ساكناً، عاجزاً، غريقاً بدوره، عندئذٍ أمسكتُ يده ووضعتها على وجنتي كمنديل؛ أنامله دافئة ورقيقة، لديه يدان ناعمتان كأيدي الفتيات، ويدي تقود يده إلى زوايا وجهي، تَذَكَّر يا جيروم، مداعباتك، ركاكتها، حبحبة بشرتي، عطرها، يدكَ التي كانت تغدو رطبه حين تلمس صدري، أنفاسكَ اللاهثة حين كان فمي يلمس أُذنك؛ أَصْغِ إلى يدك كرجل؛ أقودها إلى شفتي، فتتضاعف دموعي بسبب ابتسامة السيد العجوز للوردة، ابتسامة عاشق تتبدى لي الآن، كأنَّها بديهة، ابتسامة عاشق مستكين، أَبَدي، وَجَّهَهَا لي أنا التي لم أعرف إلَّا الوعود والخسائر، إلّا اللقاءات المظلمة والعنيفة، حيث كانت الوحشية هي اللغة المعبرة؛ أقود يدك يا جيروم إلى رقبتي، إلى حنجرتي، وأنتَ لا تكلِّف نفسك عناء المقاومة، وأقودها إلى نهديَّ، وأطلب منك أن تهرسهما وأن تؤلمني، فأنا لم أعُد أشعر بشيء من دون ألم، إنَّني ميتة من دون ألم، وأخيراً تطبع أصابعك، وكالمخالب تطحن وتسحق، وتنتزع مني صرخة حادة عابرة، وتبدو هذه الصرخة كأنَّها تمزق شرنقة تهذيبك وجبنك الصغير؛ لم تعُد الآن مستسلماً للانقياد، وتأخذ يداك زمام المبادرة، تمزقان؛ تلج أصابعك، وقحة وفظة، وتغدو حيواناً صغيراً، غريباً فظاً، فيَّ أنا التي لطالما أحببتكَ؛ وفجأة لم تعُد تصغي إلّا لذاتك، تخدم نفسك وتطعمها كحيوان مفترس متعطش لقطرة ماء، والله وحده يعلم كم هي زوجتك كو-نس-تا-

نس مضجِرَة لتتركك جائعاً إلى هذا الحد؛ وها أنتَ تدفعني فوق طاولة مكتبك، فتتبعثر الأوراق وتنزلق الأقلام ويسقط مصباح وينكسر، لكن لم يعُد يوقفك شيء، فشهوتك تطلب المزيد، وأنت لا تنظر إليَّ، ولا تنظر في عيوني، ولم تعُد تداعب بشرتي، كما كنت تداعبها قديماً في صيفنا، وأنتَ ترتعش، خلف أكواخ الشاطئ الملونة، هناك حيث يختبئ العشاق، عندما كانت بشرتي تُذكركَ بالكاراميلا؛ اليوم، لا ترى لغة السكاكين على فخذيَّ، ولا تقرأ حكايتي، ولا تفك رموز حزني؛ إنَّك سرعان ما تقف وتنسحب على الفور وترفع سروالك وبنطالك، وتشعرُ بخجل مفاجئ من هذه الأخرى التي فرَّتْ منك، التي جعلتْ منك يا جيروم وحشاً كالآخرين، حيواناً مبتذلاً في غاية التفاهة، وليس لديك ما تقوله بعد كل هذا، لأنه لم يكن حباً وإنما كان حزناً هائلاً، أنتَ لا تنظر إليَّ البتة، وتبدو لي تائهاً فجأة، أطلبُ منك منديلاً ورقياً، فيجعلك صوتي تنتفض، وترتعش يدك حين تناولني قطعة شاش طبي، لم تجد سواها؛ عندئذٍ أنهضُ من جديد، وأخفي أخاديد الكلمات على فخذي، وكل حكايتي، ولا أعود أبكي.

لا أعود أبكي.

* * *

وساد الصمت.

جمع حطام مكتبه. سكب القهوة. وظلّ مصراً على عدم النظر إليَّ.

يجب ألّا نعيد الحياة إلى قصص الحب الأولى. يجب أن

ندعها هناك حيث هي: في ظلمة الذكريات المريحة. هناك حيث الوعود الجاهزة سلفاً، والمداعبات المتخيلة والمنسية، والحنين إلى البشرة والرائحة، هناك حيث الأحلام المدفونة تطيب وتكتب أجمل القصص.

ظلمة لا يهدّدها شيء. ظلمة لا تُدرك أبداً.

وبما أنَّه يوجد إلهٌ لأجل الجبناء، أعلن جهازه النبأ. مات الرجل العجوز.

* * *

أسرع جيروم وانتظرتُ في الممر أمام غرفة غريقي صاحب الوردة. حين خرج، كان شاحباً. كان يبدو مضطرباً. سألته عمّا حدث. فقال: لا أدري. ليس ثمة أيّ مرض. كان كل شيء طبيعياً ومستقراً. أمر لا يُصدق. أعتقد، أعتقد أنَّه ترك نفسه يموت.

من الحب.

عندئذٍ احتضنتُ جسد هذا الرجل الضخم بين ذراعي وضممته إلى صدري بأقصى ما أستطيع من قوة، وفي تلك اللحظة، عرف كلّ واحد منّا ما الذي افتقدناه بشكل نهائي.

* * *

لم أرَ جيروم ثانية قط.

أمضيت الخمسة عشر يوماً من شهر يوليو على شاطئ توكيه ألعب مع هيكتور وأقرأ وأفيد من وجودنا نحن الثلاثة سوية. ضحكنا مع فيلم **أستيريكس وأوبيليكس ضد سيزار** وفيلم **كازيمودو ديل**

باريس؛ وشاهدتُ وحدي فيلم **الفتاة على الجسر**، ووجدتُ أنَّ فانيسا بارادي فائقة الجمال. قرّر هيكتور المشاركة في مسابقة للنحت في الرمال، وأراد أن يصورني كأميرة، لكن «وأنتِ مستلقية» يا أمي، وإلّا فإن ذلك في غاية الصعوبة. ترتّب عليَّ البقاء على الوضعية ذاتها لفترة مديدة، ورغم التشنجات شعرتُ بالفخر لأنَّه اختارني. لم يفُز. لكنهم قدّموا له قميصاً وقبعة وفراشاً قابلاً للنفخ، وكان سعيداً، حتى إنَّه كان يشبه شخصية إعلانية للآيس كريم بالفانيلا ومسحوق الشوكولاتة. لم أعُد أتحدث مع أمي عن نبوءة مصمّم الأزياء الإسباني حول نهاية العالم الوشيكة، بعد مئة وتسعة وخمسين يوماً بالضبط. ورحنا نستمتع بكلّ ثانية فرح نعيشها كأسرة بين الأسر الأخرى، في الصراخ واللعب، والأحلام المتكسرة والابتسامات، نهاية كل نهار.

أغلقنا شقتنا في شارع باريس نهاية شهر يوليو، وعدنا إلى منزلنا في أنستانغ. وعندما أعلن ابني أنَّه من المستحسن المغادرة لأنَّه من المستحسن العودة، أدركتُ أنَّه يكبر.

أمضيتُ شهر أغسطس في التحضير للعودة إلى المدرسة الثانوية؛ أفحص المصابيح أتأكد أنّ المطافئ جاهزة، أراقب سير عمل الحمامات، أسجل مستلزمات الصيانة، أحصي احتياجات المكتبات، أتحقق من التدفئة المركزية... إلخ. كنتُ أتأهّب للعودة إلى أيامي المغبرة بالضجر، وكان هيكتور يقضي أواخر أيام العطلة الصيفية في منزل صديقه كيفن في سانغان-آن-ميلانتوا، على بعد خمسة كيلومترات من منزلنا.

في مساء أحد الأيام، عاد شاحباً، بارد الجبين. كانت لديه

نظرة والده القاتمة ذاتها وفهمت عندئذٍ أنَّ الطفولة هجرته نهائياً. سألته عمّا يضايقه، إن كان قد تشاجر مع صديقه، وهل تخاصم مع أخت كيفن. قلت له: إنَّ الأم تبقى دوماً إلى جانب ابنها حين لا يكون بطلاً.

تنهّد بعمق وحاول أن يبدو قوياً. بقي لفترة مديدة صامتاً. عندئذٍ، عرفت. الأمهات يعرفن دائماً - إلَّا ما يتعلق بهنَّ أنفسهنَّ.

راح يبحث عن كلمات بالغٍ، لكنَّ الكلمات لم تسعفه. ولو أنَّها أسعفته، لكانت كلمات حزنه الأول، التمزق الأول، مصحوبة بذكرى دم باهته. فالأحزان لا تنتقل، وإنَّما تتوالد.

شعرتُ فجأة بالعجز في مواجهة ابني الصغير، إزاء خيبته الأولى الكبيرة. وأرعبني أنْ أرى أنّ ولادة أول حب هي دوماً مؤلمة. ودوماً قاسية.

لم تحدث نهاية العالم. لم تتعطل الحواسيب ولم تسقط الطائرات ولا الأقمار الصناعية ولا النجوم، ولا حتى الأموات الذين نشتاق إليهم، وهم في السماء - حتماً.

في الأيام الأخيرة من الصيف، شرحتُ لابني أن أحزان الحب هي أيضاً أحد أشكال الحب. وأنَّه توجد سعادة في الحنين إليها. وأنَّ فشل علاقة غرامية ليس البتة أحد الأحزان: فهو يفتح طريقاً جديداً للمرء نحو ذاته ونحو الآخرين ما دام هذا اللقاء هو بين قدرين يمتزجان. شكرني لأنَّني كذبتُ عليه - كان قد خمَّن منذ وقت طويل أحزاني الخاصة ومآزقي العديدة. اعترضتُ. هزَّ كتفيه وتمتم «ماما» وهو خائب وهذا ما جعلني أبكي.

عدنا في الصيف التالي إلى توكيه؛ بدأ هيكتور يضجر، كان يريد أن يمضي وقتاً أطول مع أصدقائه. كان يبتعد، وتتباعد عناقاتنا، ولم يعُد يبني لي قصراً وبرجاً ليأتي إليه أمير يبحث عني. لم أعُد نموذجه الحي. لم يعُد يصدِّق القصص الخرافية ولم يعُد يؤمن بالأمهات المنقذات.

* * *

على الشاطئ، راح بعض الرجال يبتسمون لي، ابتسامتي المتحفّظة أبقَتْهم على مسافة مني.

مع مرور الوقت اكتشفتُ أنَّني هدأتُ. تخليتُ عن شره الرجال وعن نفاد صبري، ولم أعد أترك عذاباتي تكتب قصة حياتي. فهمتُ معنى كلمات هذه الأغنية «نحصد الضجر حين نحصل على ما نريد»[1] وبتُّ أخيراً مستعدة لحكاية تُروى يوماً بيوم، أنتظرها، وأتهيأ لها. أعلنت الحداد على حلمي بحبٍّ جارف يمكن الموت في سبيله -في الحقيقة، لقد أخطأتِ خطأً فادحاً يا أمي. بدأتُ أحب حياتي، بدأتُ أحب ما قد تعدني به، ربما مع رجل ذات يوم- لأنَّ العزلة ليست في الحقيقة إحدى منتجات الجمال.

وفي أول صيفٍ من هذا القرن، كما في كلّ صيف تلاه حتى اليوم، أذهب عصر كل يوم إلى المقبرة في شارع كانش، إلى الركن المخصّص لمجهولي الهوية. أحمل دوماً وردة كزبرة الثعلب وأضعها على الشاهدة التي نُقِشَ عليها أخيراً اسمٌ قرّرت البلدية أن تمنحه له.

السيد روز.

وفي برودة المساء، بانتظار حظّ أوفر مع الرجال، كنا نتحدث أنا والسيد روز عن الحب.

---

(1) **طفولتي تناديني**، سيرج لاما/ إيف جيلبير.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

زنبق

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

بسبب شاعرةٍ ركيكة القافية وذات سحنة خزفية -لكنَّه خزفٌ في غاية النعومة إلى حدّ تكاد تكون معه زرقاء اللون- بسبب هذه الشاعرة، أنا موجودة هنا في هذا اليوم 13 يوليو عام 1999 وحيدة، أقود سيارتي على الطريق المؤدي إلى توكيه التي لم أزُرْها من قبل.

يبث الراديو للمرة الثالثة هذا الصباح أغنية كابريل **خارج الفصل**. تبدو لي الكلمات كئيبة وباردة بالنسبة إلى أغنية صيف.

يواظب البحر رغم كل شيء
في حراكه الدائب
على الإيقاع ذاته
وتنتهي أغنيته «أين أنت؟»

كنتُ أفضلُ في دفء أعوامي الخمسة والثلاثين، في التوق الذي استعاده جسدي واستقر أخيراً بعد ثلاث حالات حمل، الكلمات الحمقاء والشرهة لمغنٍّ يدعى باتريك كوتان.

أحب النظر إلى الفتيات اللاتي يمشين على الشاطئ
حين يتعرين ويتظاهرنَ
أنهنَّ متزنات
تتساءل عيونهنَّ لكن من هو هذا الغلام

لكنَّ الغلام الذي أحببته، الغلام الذي نظر إليَّ وأنا أمشي على الشاطئ، هذا الغلام الذي أصبح فيما بعد زوجي، ثم أبو أطفالي، لم يعد ينظر إليَّ.

غداً سأبلغ الخامسة والخمسين من عمري.

ولدت في يوم 14 يوليو من عام 1944. عامٌ حافلٌ بالأحداث التي تشغل صفحات كثيرة في كتب التاريخ. من بين الأخبار المتفائلة في ذلك العام: آنويل يلعب دور **أنتيغون** على مسرح الآتولييه في ظلّ الاحتلال؛ بيير بروسوليت يفضل الانتحار على الاعتراف تحت التعذيب؛ مئة واثنان وثلاثون ألف جندي من قوات الحلفاء ينزلون إلى شاطئ النورماندي في 6 يونيو؛ باتون يدخل إلى دينان، وإلى فان وإلى درو، ثم يحرر شارتر-المحترم باتون رغم كلّ شيء؛ لوكلير يحرّر باريس وديغول يلقي خطبته الشهيرة فيها «باريس، باريس المُهانة! باريس المحطمة! باريس الشهيدة! لكنها باريس المحررة!» لينا مارجي تغني **آه يا قدح النبيذ الأبيض**، وآراغون ينشر **أورليان**. وفي مجال الأخبار السيئة: اعتقال ديزنو ومارلو؛ إعدام خمسة وثلاثين مقاوماً رمياً بالرصاص عند شلال غابة بولونيا؛ ذبح ستمئة واثنين وأربعين شخصاً في أورادور-سور-غلان؛ آخر قطار يقل

المبعدين يغادر درانسي متجهاً إلى أوسشويتز؛ وثمة عشرة آلاف مأساة أخرى أيضاً تملأ عشرة آلاف كتاب.

منذ خمسين عاماً، أطلق عليَّ والديَّ اسم مونيك. كان ذلك منسجماً مع روح العصر، مثل ماري ونيكول؛ لكنَّني اعتقدتُ دوماً أنَّ هناك شيئاً من السادية في إطلاق اسم مونيك على وليد وردي اللون تماماً. كنتُ أُفَضل اسماً أقل حدّة وأكثر أنوثة. اسماً له طعم السكر في فم الرجل. مثل جيان. أو ليليان. أو لويز.

غداً سأسمي نفسي لويز.

* * *

أبتسم في السيارة وأنا أفكر في هذه الأغنية **خارج الفصل**.

هذا يجعلني أفكر في عبارة **خارج الخدمة**، وأتساءل إن لم أكن أنا نفسي، في مثل هذا العمر، أصبحتُ خارج الخدمة.

أتساءل وأنا أنظر إلى نفسي أمشي على الرمال اليوم، ببطن متهدِّل وعضلات فقدت شيئاً من مرونتها وحيويتها، إن كان الشَّرِه بوب سيظل يغني «صدورهنَّ المملوءة برغبة الحياة/ عيونهنَّ التي تشيح حين أنظر إليهنَّ». مع ذلك لم يزل لديَّ بعض الميزات في الصدر، رغم عشيقٍ فتيٍّ جاهل وأخرق، ورغم الإرضاع، ورغم شقوق الولادة، ورغم هذا القانون الكوني المرعب للجاذبية.

على الطريق ثمة عالم مجنون. تتباطأ الحركة فجأة.

لكنَّني لا أستاء. يعبق في الهواء مزيج من روائح القطران والأعشاب والتبغ؛ تُذَكِّر بوعود الطفولة والإجازات الصيفية.

في كروتُوي، تشير اللوحات إلى توكيه، ثلاثة وخمسون

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

كيلومتراً. سأكون فيها خلال أقل من ساعة. وخلال ما ينوف على الساعة من الآن، سأكون في الحجرة التي حجزتها لمدة يومين في فندق ويستمنستر، أجرِّب مايو السباحة الجديد الأسود. تفصيلة ماهرة، وتصميم حاذق، وتجويف إباحي عند الصدر. كانت أمي تقول: يجب الاستفادة من كل شيء. سأطلب شمبانيا؛ ونبيذ روزيه من عند تيتنجر، حسن! بارد بالتأكيد. وسأدور حول نفسي، مثل بيغي سو بثوب الرقص الفضي.

سأدع الفقاعات تطفو على لساني، وتحت فكي؛ ستشكل حروفاً وتؤلف جملة تهمس لي أنني لم أزل جميلة ومرغوبة. وعلى الأخص أصلح للحب، لأنَّ زوجي جعلني أشك في ذلك منذ بضع سنوات.

جملة رائعة تقنعني أنَّه يمكن لرجل أنْ يصبح حيواناً ويعود بي إلى النبع، إلى عصر النار والإلحاح الفظ الذي يشكّل ملح الرغبة.

وأمام المرآة الكبيرة في الحجرة، ستداعب يداي بطني، وستشد أصابعي على اللحم، برفق. سأضحك وستجعلني ضحكتي أكثر جمالاً، أعرف ذلك. هكذا قيل لي دوماً.

غداً سأكون لويز.

* * *

غداً سيترتب عليَّ أنْ أواجه الوحوش. الأجساد الكاملة - يا للهول. الأجساد ذات النهود المثالية إمّا بفضل الشباب أو بمساعدة مبضع جراح التجميل. تلك الأجساد الرائعة، الهاربة من مجلات الربيع، من الصفحات الصقيلة، الفواحة برائحة العنبر والموجودة

الآن على رمال شاطئ البحر، على بعد أمتار من رجالنا، ومن بطوننا المترهلة والجريحة. تلك الأجساد التي تعرض سيقانها على مدّ البصر في شرفات المقاهي، تحت تنانير شفافة، مثل «بوصلات تجوب الكرة الأرضية في كل اتجاه[1]». أجساد الحلم تلك تذكرني على الدوام، مثل كثير من الصفعات، بما سُلب منّا خلال السنوات الخمسين المنصرمة؛ بما حرمتنا منه الحياة والولادات والسنون والزمن الخبيث والآلام السرية. وبما أنّ زوجي لم يعُد يرى ذلك، سأعرض جسدي على مرأى من عيون الصيادين والمتوحشين والقناصين الذين تجعلهم أجساد الصيف هذه أكلة لحوم بشر. سأقدم لهم جسدي كأم، كعشيقة بعيدة، على أمل أن يلتهموه أسوة بالأجساد الأخرى.

أعرف حق المعرفة أنَّ جسدي يحمل آثار معاركي. فثمة رسوم للأشواك أسفل بطني - لأنَّ أطفالي الثلاثة كانوا ثقالاً. وثمة أوردة نافرة أعلى فخذي. وتيبسات على القدمين. إلا أنّ قوامي بقي رشيقاً، ووجهي جميلاً - فأنا أعتني بهما منذ زمن طويل، وأحمي بشرتي من غدرات الزمان، من التعرّض المديد للشمس ومن الدخان الذي يجعلها رمادية وجافة. ويحدث أحياناً، حين أكون وحيدة، أو حتى بصحبة زوجي، أنْ يبتسم لي بعض الرجال، بابتسامات مجاملة وملاطفة، وأنْ تحدّق نظراتهم بظهري بعد مروري. يبدو لي عندئذٍ أنني أعود فجأة إلى عمر الجمر والنار، أنا التي دخلت من الآن فصاعداً في عمر الحنان، واقتصرتُ على هذا الحب الصغير الذي

(1) شارل دينر، **في الرجل الذي كان يحب النساء**، لفرانسوا تروفو.

يقدّمه زوجي مصحوباً بشيء من ضجيج الشغف. كنتُ محبوبة؛ قليلاً قبله وكثيراً معه؛ سيرة امتدت لأكثر من ربع قرن. حبّ عظيم ووافر في البداية. ثم وبسرعة ثلاثة أطفال. آلاف الضحكات. بعض الذعر: حادثان على دراجة هوائية، وحادث بدراجة نارية مسروقة، ذقن مشقوقة حتى العظم، حساسية من تناول البيض، رأسٌ حليق تماماً، سقطات من شجرة تفاح، بعضها من ارتفاع طابق، حمى قرمزية طويلة الأمد، رسوبٌ في الشَّهادة الثانويَّة بنصف درجة، طفلٌ ضائع على شاطئ في 15 أغسطس، سُلَامية خُنْصُر انتزعها كلبٌ مسعور، سنّان مكسوران وأول ثلاثة آلام حب.

كبر أبناؤنا بسرعة.

أحببت حبّاً جمّاً أنَّني أمهم. اهتممت بهم، وركنتُ إلى التصرفات القديمة: الملاطفة، العناية، الطبخ -ابتكرتُ بيتزا **منزلية** وبعض الفطائر **الغريبة** التي كانت تجعلهم مجانين- أختار ملابسهم، أروي الحكايات كل مساء، أعانقهم، أصغي إلى بوحهم، أبكي معهم، أُضْحكهم، وحتى استدعيتُ رجال الإطفاء ذات نهار، حين ترتب عليّ انتزاع يد من حائط المطبخ، ومرة ثانية، لإخراج سبابة زرقاء تماماً ومتورّمة من عنق زجاجة.

أمضينا فصول الصيف في الجنوب. في سان رافائيل، لاغارد-فرينيه؛ وفي سان تروبيز أحد الأعوام - لكنَّنا كرهنا كلّ شيء. كنا نستأجر منازل لمدة شهر؛ يبقى زوجي خمسة عشر يوماً، ويعود إلى ورشاته أو طاولته، ويأتي ثانية في العطل الأسبوعية. أما الأطفال فيقضون أوقاتهم معي على الشاطئ، وفيما بعد، حين أصبحوا في سنِّ المراهقة، السن الذي يتحوَّل فيه الصّوت إلى الخشونة، ويبدأ

نمو الشعر ومصائب أخرى وليدة، صاروا يختفون طيلة فترة ما بعد الظهر. ويعودون مساءً بأحاديث مخضبة بالبيرة وبأحمر شفاهٍ أحمر على الفم وبرائحة تبغ أشقر تتضوَّع من الشعر، وبوَجْناتٍ حمراء غالباً، وسيقان مرتعشة أحياناً. عندئذٍ كنتُ أشعر بالفخر بهم وبالغيرة من حماستهم، وبالحنين إلى حماستي، ويراودني شعور بالأسف لأنَّ عمر الرجولة جاء بسرعة. *مكتبة الرمحي أحمد*

أصبحوا كباراً الآن، ولم يعودوا يمضون الصيف معنا. لم نعد نسافر كأسرة. صارت لديهم شواطئهم الخاصة بهم، ولديهم أغطية أخرى في المساء، وأحضان أخرى، وظلال أخرى أيضاً، وبالتأكيد مواقف مخزية بسيطة محبَّبة؛ لكنهم لم يحدِّثوني عنها. لا بدَّ أنهم يجدونني كبرتُ على هذه الأمور.

* * *

بعد الأطفال، حدث ما لا يمكن للرجال فهمه.

كآبة لانهائية. هبَّات ساخنة. زيادة وزن. جفاف بشرة. صداع. مزاجيَّة. حزن لانهائي وأنا أعلن الحداد على جسدي الذي كان قادراً على صنع الأطفال، على بطني الذي مات في الحياة؛ ولم يعد موجوداً الآن إلَّا لأجل المتعة، بحسب ما شجَّعني طبيبي النسائي. المتعة فقط. ولم يعُد زوجي يشبعني.

بعد ذلك أصبحت فصول الصيف التي نقضيها معاً أقصر. وأبعد. جزيرة تبعد خمس عشرة ساعة بالطائرة. شاليه في جبل شبحي بأوروبا. بداية الطريق 66، على الضفة الأخرى للمحيط الأطلسي. لكن لا شيء يمكنه أن يذكّرنا بفصول الصيف السعيدة.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

روائح الصنوبر والخزامى. الوجبات المديدة والفرحة. الصرخات بسبب دبابير يدعو بعضها الآخر إلى المائدة.

بعد سنوات من الأفراح المتمازجة، ألفيتُ نفسي، أنا وزوجي، نرزح تحت وطأة صمت ثقيل.

في المساء، أخلد إلى النوم باكراً.

في المساء، يقرأ حتى وقت متأخّر.

كنَّا في غاية التعاسة.

في بعض الليالي، وأنا راقدة في سريرنا، كنت أتذكَّر كلماتنا القديمة. كلمات شهواتنا الأولى التي كانت تذهلني؛ كلمات شهواتنا الصغيرة؛ كلمات وقاحاتنا المؤثِّرة وطلباتي الصفيقة. عندئذٍ، أبادر إلى التلفُّظ بها لأجل نفسي، تلك الكلمات المختفية. كانت تطير لبرهة في ظلام الحجرة، ثم تستقرّ على بشرتي، فيرتعش جسدي، وتنخرني عيوبي كالديدان.

في مرحلة تلك الكلمات الدفينة، انضممتُ إلى نادٍ صغيرٍ للشعر في سانغان-آن-ميلانتوا، على بعد كيلومترات من منزلنا. في مثل عمري، حَسِبْتُ أنَّ من الطبيعي أن أتأمَّل في مهنة شاعر أكثر من العثور على عمل، ولو كان عاملة تنظيفات عند أوشان أو مشرفة على صالة ألعاب رياضيَّة في البلديَّة.

كانت تدير النادي «ربَّة منزل» أخرى، وهي امرأة ذات بشرة بيضاء رقيقة، وصِحَّة ضعيفة كما كانوا يتهامسون، وأن دمها يوشك أن يتسمَّم. كانت تكتب قصائد ينشرها لها زوجها المصرفي على حساب المؤلف؛ عبارة عن كتيبات صغيرة، تُخَصِّصُ يوماً في الشهر لإلقائها في صالة منزلهم في سانغان. كان الإلقاء مصحوباً عموماً

بالشاي والكاتو من محلات الحلواني ميرت، الشهير في مدينة ليل. ولو أنَّنا لم نستمتع دوماً بالقصائد، بالقوافي المفكَّكة، ببعض الجناس، لكنَّنا تلذّذنا على الدوام بالحلويات التي كانت ترتقي دون أدنى شك إلى مرتبة الشعر الحقيقي، الشعر الذي ينظم إيقاع **رغوة الشوكولاتة والملبَّس** مع حلويات **الخطمى والفاكهة الطازجة**.

حاولتُ من باب التسلية أن أنظّم بضع قصائد سداسيَّة (صعبة جداً)، فجرَّبت عندئذٍ الخماسيَّة والرباعيَّة (أيضاً صعبة)، وفي النهاية بدا لي أنَّني نجحت في كتابة بضعة أبيات ثنائيَّة؛ لكنَّها لم تكن بطعم قصائد الشاعرة الشاحبة.

- أنتِ لستِ مثل طالباتي الأخريات يا مونيك (لم أكن قد أصبحتُ لويز بعد) أنتِ... أنتِ لستِ مثلي. نحن نكتب قصائدنا لأنَّنا لا نستطيع أن نعيشها، إنَّنا مذعورات وخاضعات كلياً. أما أنتِ فمخلوقة للشغف؛ للهاوية التي تجعل النساء في غاية الحيوية. ثمَّة شيء روسي فيك. أختي الصغرى فيكتوار تشبهك. إنَّها في سنِّ الثالثة عشرة فقط، وأظنّها قادرة على الإثارة المُحرقة وتحمّل الآلام وجديرة بالجنة. انطلقي يا مونيك ولا تدوِّني إخفاقاتك على الورق! انطلقي وعيشي الشغف، أحرقي نفسك، ففي هذا الضياع يجد المرء نفسه.

بدت فجأةً منهكة - بسبب كثرة الكلام ولا شك. وكثرة الاعترافات.

- اذهبي وضيّعي نفسك في توكيه، فهناك البحر بين مدٍّ وجزر كغطاء، كعديم حياء. وأيضاً أعرف أنَّه لم يزل يوجد فيها رجالاً لَبِقين.

في ذلك المساء، تكلَّمتُ أنا وزوجي مطوَّلاً. حدَّثته عن الفراغ

الذي أعيشه وعن رغباتي. أصغَى. احتجّ. شربنا زجاجة نبيذ. إحدى تلك الزجاجات التي يحتفظ بها «للمناسبات الخاصة»، ثم توصَّلنا إلى اتفاق، بين البكاء والضحك. وفي هذا اليوم الموافق لـ 13 يوليو عام 1999، سافرتُ إلى مسافة 180 كيلومتراً عن منزلنا. وحيدة.

هناك حيث البحر بين مدٍّ وجزر كغطاء، كعديم الحياء.

* * *

وها أنذا الآن في توكيه. ثمَّة أيضاً رتل من السيارات والدرَّاجات الهوائيَّة وعربات السُّيَّاح على امتداد طريق الغابة الأحمر. المنازل متوارية على الجانبين، ضحكاتٌ، وخرير ماء، وروائح نار. آلاف الأمتار من الانتظار، ويتبدَّى فندق ويستمنستر الضخم بقرميده الأحمر وشرفته البيضاء.

إنَّها الساعة السادسة مساء، وبحسب نوستراداموس(*)، نهاية العالم وشيكة.

في عام ألف وتسعمائة وتسعة وتسعين، الشهر السابع،
سيهبط ملك الرعب العظيم من السماء
ويجيء ملك أنغولموا(**) العظيم
قبل وبعد أن يحكم الإله مارس لحسن الحظ

(*) ميشيل نوستراداموس (1503-1566): طبيب وفلكي فرنسي من القرن السادس عشر يعتبره الكثيرون بمثابة نبيٍّ.

(**) أنغولموا: اسم إقليم فرنسي قديم عاصمته أنغوليم.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

في غرفة فندق ويستمنستر، فوق طاولة صغيرة، زُرعتْ باقة من خمس زنابق حمراء في إناء جميل.

أبتسم.

ها قد بدأتُ.

الزنبق، أعرفه. ظهرت هذه الوردة الساحرة ذات البصيلة في اليونان. تقول الميثيولوجيا: إنَّها نبتت من دم الشاب هياسينث، الذي قتله زيفير أثناء رمي القرص. ولأن أبولون حزن من هذه المأساة، فإنه خلق زنبقة حمراء من دم هياسينث، حتى يبقى حياً إلى الأبد.

يقال أيضاً: إنَّ الزنبق الأحمر يعني: **هل تريد ممارسة الحب؟ - مع بلوغ النشوة الجنسيَّة.**

كان الزنبق أيضاً الاسم الأول، لكنه تلاشى اليوم، لقدّيسة من القرن السابع عشر، راهبة من فيتيرب، دخلت إلى الدير إرضاءً لأبويها، وعاشت فيه حياة فضائحية لأكثر من عشر سنوات.

* * *

كما هو مقرّر، أرفعُ قدح النبيذ الوردي التيتنجر - البارد بالتأكيد. ثم أجرب مرة أخرى مايوه السباحة الجديد. أتأمَّل في المرآة الكبيرة صدري وامتداد فخذيَّ الرقيقتين، ومؤخرتي ووركيَّ. أَقْرُصُ لحمي الزائد. أضحك، وأعرف أنَّ ضحكتي صامتة وجميلة.

تهمس لي فقاعات الشمبانيا بعبارات فرحة؛ وبعضها يكدرني.

بعد ذلك، أرتدي ثوباً قصيراً أسود؛ فخذاي مثل بوصلة يمكنها أن تمسح مُقَلَ عيون الرجال في كلّ اتجاه.

أجل، يخفق قلبي حين أدخل حانة الفندق. الماهوغاني. ثمَّة كثير من الناس، وكثير من الضجيج. يراودني انطباع مفاجئ أنَّ ثوبي غير مناسب. لكن ابتسامة بعض المغرمات تطمئنني: أبوابٌ تُفتح، وعودٌ مدوِّخة، أقوالٌ بذيئة. هذا الصيف، ثمَّة عتمة، والكحول يُعرِّي الحياء. الأزواج بعيدون والنساء وحيدات.

لم تعد توجد أيَّة طاولة شاغرة. ثمَّة زوجان كبيران في السنِّ هناك، يجلسان جنباً إلى جنب، يرتشفان كأس بورتو. يتبادلان نظرات غراميَّة. أصابعهم مثل أفاعي صغيرة متداخلة، تتلامس وتتشابك، وشعرت فجأةً بضيقٍ في التنفُّس لأنَّني أخمِّن أنَّ ثمَّة قصة حب عظيمة هناك، قصة من تلك القصص التي تحلم بها جميع النساء، لكنها لا تحدث أبداً، ولا تترك مجالاً إلا لمرارة حياة صغيرة. نعيش دوماً قصص حبٍّ مقتضبة.

- تسألني سيدة عجوز: ألا تشعرين أنك بخير؟

لديها عينان صافيتان وعذبتان. أتلعثم:

- أنا. بلى.

- تقترح: اجلسي لحظة، الجو حار هنا.

عندئذٍ أجلس على الأريكة الوحيدة الصغيرة الشاغرة مقابلهم. عيناه هو أيضاً صافيتان، وخدَّاه غائرتان، ووجنتاه بارزتان، مرسومتان بأناقة. انتهيا إلى التشابه. كلاهما جميلان. لا أستطيع منع نفسي من إخبارهما بذلك. تُبعد مديحي بيدها وهي تضحك.

- تقول: لسنا نحن الجميلين، إنَّما ما عشناه هو الجميل. حتى عواطفنا كانت جميلة. هل تريدين كأساً ما؟

أشير بالنفي. شكراً. إنَّني مفتونة بهما.

- المعذرة على تطفُّلي، هل أنتما معاً منذ زمن طويل؟

هذه المرة، هو مَنْ ضحك.

- هل تجدين تشابهنا سيئاً إلى هذا الحد؟

- لا. بالتأكيد لا. بالعكس. ينظر أحدكما إلى الآخر كأنكما تقابلتما للتوِّ.

- آه، منذ أكثر من خمسين سنةً ونحن نتقابل كلَّ يوم، تتدخَّل بخبث.

فجأةً، تتبدَّى لي كلّ إخفاقاتي. في بضع كلمات من هذه المرأة، في نظراتهما، في حبِّهما اللانهائي. أنهض.

- إنني بحالة أفضل الآن. شكراً.

أبتعد وأنا أشعر بالدوار.

يقترح عليَّ نادلٌ أن أجلس على طاولة الحانة.

أعتلي أحد المقاعد الجلدية الحمراء الذي جلست عليه قبلي تامارا دو لامبيكا ومارلين دييتريش وغلوريا سوانسون، ومنذ فترة وجيزة جداً، جلستْ عليه لو دْوالون وشارلوت رامبلينك وكارول بوكيه، وهن متشائمات. ألفُّ ساقيَّ بهدوء. كما في التصوير

البطيء. لم أجلس على هذا النحو من قبل. وعلى الفور أَحْمَرُّ خجلاً. يمدُّ إليَّ النادل بقائمة مشروبات ليس فيها شيء، سوى أسماء مركبات ومكوِّنات تسبِّب لي الدوار[1]. أتردَّد لبضع دقائق قبل أن يهمس لي رجل قريب جداً في عنقي.

- انسي كلّ هذا. لا يوجد شراب يناسبك إلّا الشمبانيا.

أرتعش. يا إلهي، يحدث هذا بسرعة فائقة. لأن شهية الرجال لا تُشبع، وكذلك بسبب استعجالهم للحصول أحياناً على شيء من الملاطفة. أشدُّ غريزياً ثوبي لإطالته - ردُّ فعلٍ قديم من **المرحومة** مونيك. أحب حباً جماً هذا الصوت. دافئ. رزين. رصين. أحب الكلمات التي تفوّه بها للتو. كلمات دقيقة وعفوية. كلمات خبير. حين الْتَفَتُّ ببطء لأكتشف وجهه، اختفى. لعله لم يحب ما رآه. ساقاي وقوامي وعمري.

أطلب قدح شمبانيا.

أودّ أن يقترب أحد لمخاطبتي ليس لأنَّني وحيدة، وإنَّما لأنَّني جميلة. ليس لأنَّني أمتلك التجربة، وإنَّما لأنَّني بالضبط لا أعرف شيئاً.

بعد ذلك، جاء شخص بالتأكيد ليحادثني، ليقترح عليَّ أنْ أنضم إلى مجموعة. لماذا لا نذهب لتناول العشاء عند بيرارد. فحساء

---

(1) **أفولينوس** (نبيذ العسل، عصير البندق، خمر التفاح)، **الفريتيز** (بيرة جينيبر هول، كريمة كامبري بالنعناع، عصير الفراولة الطبيعي)، **كانيلوس** (روم، عصير الكمثرى، شراب سبيكولوز)، **بلانتور دو نورد** (روم، نبيذ العسل، شراب معطّر).

السمك لديه يبدو استثنائياً. أو نحتسي كأساً في مكان آخر. أو نذهب للرقص. لكّنني لا أريد أصدقاء جدد، ولا موائد فرحة، ولا رجالاً فاتنين ولا راقصين مولهين بحفلات 14 يوليو، لا. أريد أنْ أكون مفتونة ومختطفة. أريد أن أكون مُلْتهمة.

لكنَّ الرجال عميان.

أريد هذا الخطر الداهم المحدق بالمرأة. الخطر الذي يدفعها لتُصَدِّقَ ما تقوله الأغاني. «تعال أقسم لك/ أنَّه قبلك، لم يكن يوجد قبلُ[1]»، الخطر الذي يصالحنا مع جزء من بهيميتنا ويأسنا وفرحنا. الرغبة. الحقيقة. الإلحاح الذي نستسلم له. الذي يودي بنا إلى الهلاك. ولا يترك لنا أحياناً إلَّا دموعنا.

أغادر **ماهوغاني**، والنجوم الدافئة تلمع في عيني. وحيدة.

يحلّ الليل بعذوبة. تضيء المصابيح كالسُّبَّحات. الهواء عليل. أسير في الطرقات التي تشير إلى باب الفندق، حتى شارع البلاج. أصادف عائلات سعيدة، آباء وأمهات أيديهم متشابكة، أطفالاً متحمسين ومتقلبي الأطوار. وأصادف أيضاً شباباً جاؤوا من مدينة ليل، من آميان وآراس وبيتون، ليحتفلوا بالعيد ويرقصوا ويشربوا ويُغروا الفتيات، لأنَّ الأجساد في الصيف، كما يقال، تُعَبِّرُ عن نفسها، ولأنَّه لا حاجة لمفردات كثيرة كي تتفاهم فيما بينها.

مع ذلك، هنالك دوماً فتيات بائسات في اليوم التالي من الصيف. فتيانٌ أشرار. قبلات فاشلة. لكماتٌ طائشة. أحزانٌ بلا عزاء. ألتقي كلّ أحلام السعادة لأولئك الذين عملوا ووفروا أو

---

(1) **في كل مرة**، باربارا.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

حرموا أنفسهم ليأتوا إلى هنا ويقضوا أسبوعاً في الصيف ويعيشوا سهرة رقص يصنعون منها ذكريات سعيدة ويخزنون صوراً جميلة وملونة ستجعل ذات يوم من صور المرض أو الخوف أو الهجر التي لا تطاق، صوراً محتملة.

العطل الصيفية، هي تلك اللحظة الطفولية التي نستعيدها، حين كنا خالدين، حين كنا نعتقد أنَّها لن تهجرنا أبداً.

نصبَت المدينة منصّة كبيرة في موقف السيارات من أجل الحفلة الراقصة في اليوم التالي. السماء صافية، المصابيح الملونة تتألق؛ تتجعّد أسلاك الإضاءة كفراشات سجينة مرعوبة. يرقص الصِّبْيَة الآن. أحضروا الموسيقى والمشروبات التي تمنعهم من النوم. انضم إليهم بعض الراشدين وهم يديرون أطفالهم الرضع في الهواء.

وأنا أراقبهم، أتذكّر دوامات بعيدة. أتذكر رقصي الأول في سن الثانية عشرة مع صبي كان يتعرق كثيراً. وفي سن الرابعة عشرة، هنالك رقصة سلو مع أعزّ صديقاتي، وهي فتاة صهباء؛ طويلة يفوح شعرها برائحة شجر حراجي ندي ولحاء رطب؛ كنتُ أنا وهي مضطربتين، وفي وقت لاحق تبادلنا القبلات، وبعدها تَخَبَّلَتْ أيدينا وأصبحت الشجرة الحراجية مكاناً مضيئاً، ثم صار لدينا سرنا الرائع والخرافي.

أخلع حذائي على الشاطئ. الرمل ندي وشبه بارد. أتوجه نحو البحر الذي يعود الأطفال المغامرون والمتجمدون منه. تنتظرهم أمهاتهم بالمناشف الإسفنجية والكلمات الحنونة. هناك، يمشي الخيالة بإيقاع هادئ، وتتطاول ظلالهم على الرمال. وأبعد منهم، ثمة نار موقدة وسط مجموعة صبيان وفتيان، والريح تحمل نغمات

الغيتار وروائح الشواء، وأيضاً قهقهاتهم. حلّ الليل. لا أحد يريد العودة. يريدون الحياة.

- قدح شمبانيا سيجعلك في أحسن حال.

أنتفض، دون أن ألتفت. يمشي ورائي على بعد أقل من متر. لا أشعر بالخوف. أعرفه.

- أسْرَعْتَ في الاختفاء منذ قليل في حانة الفندق.

- كان يوجد الكثير من الناس.

- لم تكن شهامة من جانبكَ، أليس كذلك؟ لهذا شعرتَ بالندم، فتبعتني إلى هنا لتعتذر وتنقذ نفسك.

- لستُ آسفاً على شيء.

- هل كنتَ من أولئك الخجولين الذين يحاولون أنْ يصنعوا سحرهم من هذا الحياء؟

- لا.

- إذاً أنتَ متزوج؟

- أجل.

- وما الذي يدفع رجلاً متزوجاً لملاحقة امرأة على الشاطئ يوم 14 يوليو، عند حلول الليل؟

- يجرب حظّه.

- هذا لا يُغريني.

- زوجتي سافرت أيضاً لمدة أسبوع.

- ما زال الأمر غير مشرِّفٍ بالنسبة لي.

- اعذريني. في الحقيقة، لستُ معتاداً على التقرّب من امرأة تمشي حافية القدمين على الشاطئ في الليل.

- لكنَّ هذا لم يمنعك من التقرّب من امرأة متزوجة في الحانة في وقت مبكر من هذه السهرة؟

- آه، أنتِ متزوجة.

- أجل.

- وزوجك ليس هنا؟

- ربما هو مع زوجتك.

إنني مجنونة.

- لا أعتقد. إنَّها جدية أكثر ممّا ينبغي.

- لكن قد يكون زوجي ماهراً في الإغراء وحاذقاً في الإطراء، على النقيض منك.

حتماً أنا مجنونة.

- كنتِ الأولى، هذه هي المرة الأولى التي أقوم فيها بهذه الخطوة.

- المرة الأولى؟ إنَّك جريء جداً بالنسبة إلى مبتدئ إلَّا إذا كانت عبارة «لا يوجد إلَّا الشمبانيا تناسبكِ» مستقاة من كتاب.

- لم أقُلها لأحد من قبل. أنتِ الأولى.

- كنتِ الأولى. أنتِ الأولى. استخدامكَ للزمن يشبهكَ على نحو خطير.

- رأيتُ في البداية ساقيكِ. فكرتُ في جملة لشارل ديني في أحد أفلام تريفو. ثم وركيكِ، حين اعتليتِ الكرسي. وبعد ذلك طريقة وضع الساق فوق الساق، كما في التصوير البطيء. مثل منزلقة.

تأثرتُ.

- لم تكن قد رأيتَ وجهي بعد؟

- لم أكن قد رأيتُ وجهكِ بعد. كنتُ عند رقبتكِ حين همستُ لكِ بتلك الإجابة السيئة المستقاة من كتاب.

- كانت ساحرة.

- لم يكن لديكِ قوام امرأة تطلب كوكتيلاً له اسم مضحك، وتضطر لتحمل الحركات المحزنة لنادل يحضره أمامها، معتقداً أنَّه يحمل تمثال أوسكار هوليوود بين يديه. الشمبانيا كانت الحلّ الوحيد.

- لماذا هربتَ؟

- ربما لأنَّك كنتِ ستجدينني قبيحاً جداً.

- وهل أنتَ قبيحٌ؟

- من حسن الحظ أن الليل قد حلّ.

- ربما أنا أقل سحراً ممّا تظن.

- حلّ الليل.

- وأقل شباباً أيضاً.

- الليل أسود.

- أحبّ صوتكَ.

- هذه المرة الأولى التي يتلفظ بها صوتكِ بالكلمات التي أقولها لكِ.

- وبعد؟

- **وبعد؟** هذا يذكرني بروكسان.

- **طَرِّزْ يا صديقي، طَرِّزْ.**

- لقد أربكتني منذ أنْ رأيتكِ.

- لكنك متزوج؟
- وأنتِ أيضاً متزوجة.
- هل سبق أنْ خنتها؟
- لا.
- ألم تراودكَ من قبل رغبة بخيانتها؟
- رغبة. لا.
- الأمر يتعلق بالفرص إذاً؟
- أجل.
- **طَرِّزْ، طَرِّزْ.**
- ليس ثمة امرأة تستحق التضحية.
- وإن وُجِدَتْ واحدة تستحق ذلك؟
- لم أصادفها قط.
- مع ذلك تقربتَ مني. ألا أستحق العناء؟

مجنونة أيضاً وأيضاً.

- أجل يا روكسانا. وأنتِ هل خنتهِ؟
- لست روكسانا، وإنَّما لويز.
- لويز. اسمٌ جميل. شيء حلو في الفم، مقطع صوتي مديد مثل نبيذ رشيق.
- ربما أدعى مونيك.
- يا للهول، اسم نبيذ رديء. بالتأكيد لا، فاسم لويز يناسبك ويناسبني أيضاً. وإذاً؟
- أنا أيضاً، لم أخنه قط.
- ألم ترغبي بخيانته؟

أضحك.

- أوه، بالطبع!

- إذاً لماذا لم تخونيه؟

- كنتُ أنتظر أنْ يتقرّب مني شخصٌ في حانة الفندق ويقول لي بصوت رزين «ليس هنالك ما يناسبك إلّا الشمبانيا»، وأنْ يتبعني إلى شاطئ توكيه عند حلول الليل، لئلا أستطيع رؤية وجهه المرعب ولكي لا يرى عمري الكبير، وأنْ يمسك يدي.

يمسكُ يدي.

- ثبتني.

يثبتني.

- التصق بي.

يلتصق.

- قبلني في عنقي.

يقبلني في عنقي.

قل لي إنَّني أثيرك.

- نعم أنتِ تثيرينني.

- وأنَّني أهرب وأنا أصرخ.

أهرب.

يصرخ:

- تصرخين بماذا؟

- اعثر عليَّ!

* * *

ركضتُ حتى تقطّعت أنفاسي.

ركضتُ نحو السدّ، نحو مواقف السيارات السيئة. نحو المنصّة المنصوبة من أجل الحفلة الراقصة. مررتُ بشارع سان-جان المزدحم، دفعتُ البعض، فشتمني أحدهم دون خبث؛ وهمس لي آخر بوعد، كما لو أنّني فتاة؛ لكنّني كنتُ أضحك، كنتُ لا أزال أضحك، وأشعر أنّني جميلة؛ وفي تلك اللحظة، كنتُ جميلة؛ أقسم لكم أنّني كنتُ جميلة.

* * *

ثم جاء يوم 14 يوليو الأخير من هذا القرن.

* * *

صبيحة يوم عيد ميلادي استيقظتُ متأخرة.

لأول مرة منذ زمن طويل، نمتُ عارية. لأول مرة منذ زمن طويل، عثرتُ على تلك الأحاسيس البدائية للرغبة؛ على ذلك العطف الذي يُداني كلّ الممكنات.

مرات عديدة في الليل، بحثتْ يدي عن جسد الآخر ووجدتْ الغياب. الهاوية. من هو الأخير، الذي يعرف المرء أنّه سينهي حياته معه، دون أنْ يتخلى أبداً عن الحنان الذي يعقب الشغف، الحنان، تلك التفاهة الصغيرة المريحة والمهينة تقريباً؟ مَن هو ذاك الذي سيواظب على تأجيج أجسادنا المتهدِّلة، أجسادنا كأمهات، ذكرياتنا كنساء؟

أطلب الإفطار. يحضره لي نادل شاب بسرعة. طبق فضي،

غطاء مائدة أبيض، ومزهرية صغيرة فيها وردة صفراء صغيرة - وردة صفراء تعني **إعلان خيانة**؛ يجعلني هذا أبتسم. يرتبك الفتى. حين أقول له إنَّه فاتن، يفرّ[1]، بحيوية ضبٍّ. ثم آخذ حماماً مديداً، مثل آريان دوم قبلي، التي كانت تنتظر سنيورها[2].

وأنا أيضاً؛ مثل آلاف النساء المنزوعات السلاح بإزاء هوس الرجال الوحيد: الجِدَّة(*).

* * *

عند الظهر، أصبح السدّ أسود من الناس.

حفلة لكل أنواع الدراجات الهوائية والزلاجات. ملهاة موسيقية صغيرة. مسرحية هزلية إنسانية هائلة. أطفال يصرخون طالبين غزل البنات والبوظة الإيطالية. عائلات بأكملها تجلس على الشاطئ لتناول طعام الغداء. رجل كهل يدخن وهو ينظر إلى الفتيات الشابات يخرجن من الماء. كأنَّها صور فوتوغرافية لدوازنو. نساء وحيدات يبتسمنَ وهنَّ على هذا الحال. نظرات تتلاقى في نهاية المطاف. لقاءات تُحاك. مخاطر تتضح. حبّ يُزهر على أمل ألّا يذبل ذات صباح من شهر سبتمبر.

للمرة الأولى في حياتي، أشارك في حُب الصيف هذا. فأنا من

---

(1) تضم الثانوية الفندقية الشهيرة في توكيه عدداً من التلاميذ في مقتبل العمر (إذاً انفعاليين) وهم يمدّون يد العون لفنادق المدينة في مناسبات الفصول مثل 13 يوليو و25 ديسمبر.

(2) **حسناء السنيور**، ألبير كوهين.

(*) نسبة إلى ما هو جديد.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

اللاتي يمنحنَ أنفسهنَّ للصياد، ويراودني حلمٌ بأنَّه سيأخذني إلى منزله ليعرّيني.

مشيت لفترة طويلة على السدّ. تجاوزتُ الشاطئ إلى أعلى جادة لويزون-بوبي؛ وهناك، تحت مظلة صفراء على الرمل، رأيت رجلاً نائماً وهو جالس على أريكة من القماش الأزرق، وامرأة تقرأ كتاباً - من ظهرها، تشبه شاعرتي السانغينوازية: رقبتها شاحبة وجسدها متعب.

على بعد ثلاثين متراً في الأسفل، ثمة مراهقان بشقرة الرمال، يكادان يختفيان بين الأعشاب الرملية الطويلة، بُطء حركاتهما يُذَكِّرُ بحياء الطفولة، أمّا تعجّل الجسدين فيذكّر باندفاعة الرغبة عند الراشدين، يخطفان قبلة شفاه فجأة، ثم ينفصلان فجأة أيضاً. تبدأ الفتاة بالصراخ.

- الحب هو حين يكون لدى المرء أيدي تَخِزُ وعيون تحرق، حين لا يعود يشعر بالجوع!

فكرتُ على الفور بأبنائي الثلاثة الكبار وتمنيتُ أنْ يكونوا من صنف الرجال الذين يخزون أيدي الفتيات ويحرقون عيونهن. من أولئك الرجال الذين يفرون لكنَّهم يعودون دوماً؛ مثل رجل الحانة في نهاية المطاف، ذلك المتطفل الرائع.

تمدّدتُ في الكثبان الرملية. أغمضُ عينيَّ. أدع أصابعي تنغرس في دفء الرمال كالأفاعي. تتسرّب الحبيبات كأنها ماء جاف. تُدفِئ الشمس وجهي وترفع الريح رفل تنورتي، فأدعها تفعل ذلك.

تستقرّ يد على ركبتي.

- كلمة واحدة، وسأحزر صوتك.

- هذا أنا.

عندئذٍ، تتسلق اليد امتداد فخذي. وتتوقف بين ساقيَّ، ثم تتعرف على الجِدَّة.

- أهي زوجتك من علمتك أنْ تداعب امرأة بهذه الطريقة؟
- لا. إنَّها رغبتي الجامحة بك، أجل. إنَّها وقاحتي.
- ألم تعد تمارس الحب؟
- ليس بما فيه الكفاية. ليس بما فيه الكفاية غالباً.
- ألم تعد تشتهيها؟
- أنتِ من أشتهيها.
- **كلمات، أيضاً كلمات، دوماً كلمات.**
- إنَّني صادق يا لويز. هذه أول مرة منذ خمسة وعشرين عاماً أشتهي فيها امرأة مثلك.
- ما تشتهيه هو الجِدَّة.
- وهذه أيضاً أشتهيها.
- لكنك حين ستُقَبِّلُني وتأخذني، سأصبح من التاريخ القديم.

ذكرى صيف. غنيمة عطلة صيفية: امرأة جميلة في منتصف العمر، متزوجة، وفية، وحيدة في توكيه ليلة 14 يوليو. الرجال لصوص لا يحافظون على غنيمتهم.

- لا أظن. سأسرقك من زوجك. سأحافظ عليك يا لويز.

* * *

عندئذٍ، أنظر إليه.

لا بد أنَّه لم يبلغ الستين تماماً. ثمة تجاعيد مؤثرة في زوايا عينيه. أما عيناه فصافيتان ومبهرتان ومثيرتان، كعيون كلاب الجر التي أنسى اسمها دوماً. تداعب أصابعي تقاطيع وجهه. وجنتاه بارزتان. شفتاه مكتنزتان، كفاكهة تغري بالقضم. ليس جميلاً تماماً، لكنني أجده ساحراً جداً؛ فهيئته تشبه هيئة إيفس مونتان في فيلم **قيصر وروزالي** - الابتسامة ذاتها، القوة البادية عليها ذاتها، التقلبات المحيرة ذاتها. عندئذٍ أضع رأسي على صدره، فيضمّني وتضغط يده التي تصنع الأعاجيب على كتفي. نمشي هكذا على السدّ لفترة مديدة. نضبط إيقاع خطانا، فيُقَصِّر هو خطواته بخفة، وأطيل أنا خطواتي. ما أصعب هذا الإيقاع في المرات الأولى. نبتسم. لا نتكلم. ليس ثمة شيء بيننا سوى هذا الدفء الوليد؛ دفء رغباتنا التي اعترفنا بها أخيراً. لهفتنا. للمرة الأولى بعد ولادتي لأبنائي، أشعرُ أنني جميلة في أحضان رجل.

وأنَّني مشتهاة.

* * *

في يوم حزين مكفهر، بعدما بدأ زوجي قليلاً ما يتقرّب مني، أحصيتُ علاوة على الضحكات والأطفال واللحظات الباهرة الأخرى، خمسة وعشرين عاماً من الحياة المشتركة كانت تمثل أيضاً

أكثر من ثمانية عشر ألف وجبة غسيل، والآلاف من ساعات الكوي، وأيضاً الآلاف من الساعات في ثني الملابس وترتيبها وتركيب الأزرار، وفي تنظيف البقع العنيدة، وفي التأكد من توضيب قميصه المفضل ليكون جاهزاً في اليوم التالي من أجل اجتماعه الهام جداً؛ وكذلك تشغيل برنامج غسالة الأطباق عشرة آلاف مرة، وضعفها على الأقل من الحركات لترتيب الصحون والكؤوس في الخزائن، وفرز الأغطية، لتنظيف طبق، عشرة أطباق، ألف طبق، ورؤية يداي تتلفان رويداً رويداً، والشعور بأنْ أناملي صارت شبيهة بأوراق الجلخ الرقيقة جداً. إذاً أجل، ومئة مرة أجل، لهذا السبب لا أخشى اليوم أن أكون سعيدة. وفي نهاية المطاف، الأمر يخصّني أن أقع في الهوى المُضني لرجل. فما كان يوقظ أمواجي الراكدة، ويشبع رغباتي العاصفة والغريقة، هو أنني لم أزلْ، وعلى الدوام، صالحة للمداعبة بتلك العجلة التي تتفهم جوعي، كما حدث في الكثبان الرملية منذ قليل.

أوه، صرختُ. يا إلهي ما أشدّ خجلي. صرختُ بحيث سمعني كلّ الشاطئ ولا بد. تَوَرَّدْتُ وارتبكتُ. ما كانت مونيك لتتجرأ على فعل ذلك أبداً: خصوصاً مع زوجها؛ ما كانت لتتجرأ على ترك نفسها على سجيتها بين الناس، خشية أن يفاجئونها.

على طريق الشاطئ، في أعلى شارع دورتي، رأيتُ الزوجين العجوزين اللذين صادفتهما بالأمس في **ماهوغاني**. يرتدي كلٌّ واحد منهما سترة لونها بيج. يتماسكان بالأيدي، كأنَّ كلَّ واحد منهما يريد أن يمنع الآخر من الطيران فيما لو حاولت الريح أن تلعب دوراً خبيثاً وسعت إلى فصلهما. لكنَّهما لم يرياني. أرتجف. أقول في سري

حبَّذا لو شابهتهما يوماً. حبَّذا لو أنَّ شخصاً يمسك يدي ولا يعود يتركها أبداً. حبَّذا لو أنَّني لا أعود أشعر بالخوف من الزمن الذي يمضي. من السأم الذي يهدِّد، ولا من الحب الذي ينمحي.

أريد قصة تمضي في العشق حتى النهاية. أودُّ أن أصدِّق أنَّنا يمكننا أن نشيخ معاً في اللحظة ذاتها، مثل فيلمون وبوسي، وأن نتحوَّل إلى شجرة مثلهما.

شجرة واحدة.

بعد قليل، سأقول له إنَّني موافقة. سأقول له اسرقني واحتفظ بي. بعد قليل، سأقول له أشياء لا رجعة فيها.

مارِسْ الحبّ معي ولا تطلب إذناً ضاجعني هيا اسرقني كل شيء لك إنَّني عذراء تماماً علمني أيقظني فإنَّني نائمة منذ زمن طويل جداً وأريد الاستمتاع والضحك والبكاء لا يراودني شعور بالخوف معك أحب أصابعك التي تنبشني فهي تذكرني بأصابع روبير كانكيد في فيلم طريق ماديسون عندما يبدأ بتنظيف الخضار من أجل وجبة تعدها لهم بكيتُ في السينما ورغبتُ فجأة بالمساعدة في شهوته لا متلاك حق الدخول إلى صمتي رغبتُ بهذه الفظاظة التي تلتهم موافقتي أقدم لكم أكثر من موافقتي الجميلة قل لي إنك ستسمي نفسك روبير وأنَّك ستلهمني (*)

* * *

(*) النص الأصلي مكتوب بشكل متصل دون فواصل بين الحروف والكلمات ودون علامات ترقيم بين الجمل وذلك للدلالة على طريقة كلام الشخصية، وهو كالتالي: مارِسْ الحبّ معي ولا تطلب إذناً ضاجعني هيا اسرقني كل شيء لك إنَّني عذراء تماماً علمني أيقظني فإنَّني نائمة منذ زمن طويل جداً وأريد الاستمتاع والضحك والبكاء لا يراودني شعور بالخوف معك أحب أصابعك التي تنبشني فهي تذكرني بأصابع روبير كانكيد في فيلم طريق ماديسون عندما يبدأ بتنظيف الخضار من أجل وجبة تعدها لهم بكيتُ في

- اسمي روبير.
وأنا أحبكَ. لكنَّني لا أقول هذه الجملة. وإنَّما أجيب:
- إنَّني سعيدة.

* * *

بعد ذلك، بينما كنّا نصعد شارع سان جان عصراً لنذهب إلى فندق ويستمنستر ونعود إلى غرفتي، توقفتُ فجأة، وارتقيتُ على رؤوس أصابعي -يا إلهي، لقد نسيتُ كم كان طويلاً- وقَبَّلْتُه، بطريقة لم أتجرأ من قبل على فعلها. قُبْلَة محمومة، هناك، على قارعة الطريق، وعلى مرأى من الآخرين. قبلة غير لائقة. نادرة. إنَّها القبلة الأولى، الأهم والأكثر حميمية، قُبلة تفتح البطن والقلب.

بالتأكيد، نحن محقان في واحدة من أكثر الإجابات الحمقاء في العالم: «توجد فنادق من أجل هذا الأمر!» أجبتُ ضاحكة: «لنذهب إليها، هيا!» وضمّني روبير بقوة أكبر، بمنتهى الرغبة والدفء والقسوة والحيوية؛ وشعرتُ بالدغدغة. جميلة وفريدة.

فيما بعد، في الغبش المالح والملتهب لحجرة الفندق الكبير، بعد نشوة استرخائنا، بعد البقع المضيئة والوقاحات الحمقاء، والمداعبات العنيفة، غير المسبوقة، وبعد الدموع التي هي زبدة اللذة، حين وصلتُ إلى حافة الاختناق، كأنَّ حياتي مستهدفة، كأنَّها

= السينما ورغبتُ فجأة بالمساعدة في شهوته لامتلاك حق الدخول إلى صمتي رغبتُ بهذه الفظاظة التي تلتهم موافقتي أقدم لكم أكثر من موافقي الجميلة قل لي إنك ستسمي نفسك روبير وأنَّك ستلهمني.

كلماتي الأخيرة وأنفاسي الأخيرة، استطعتُ أخيراً أن أعلن له استعجالي لأن أكون مشتهاة، لأنْ يحبّني مراراً وتكراراً، لأن أنتمي من جديد إلى رجل.

* * *

شكراً شكراً شكراً شكراً شكراً.

السماء سوداء والسد أسود من الناس.

غناء وشرب وضحك. يشبه آخر يوم من 14 يوليو في هذا القرن حفلة كبيرة لا تهمها الأيام التالية، ولا وجوه السكارى ولا وجوه أخرى زال السُّكْرُ عنها.

نمشي أنا وروبير ببطء. نتماسك بالأيدي، مثل ذينيك العجوزين الذين رأيناهما عصراً. تلتهب يدانا، ونشعر أنَّ دمنا كثيف - نهرٌ صاخبٌ، فرحٌ ونهم.

يهدر البحر من بعيد، كأنَّه وحش جائع، قابعٌ في الظلام ينتظر فريسته. الأطفال أيضاً جزء من المشهد: على الشاطئ، يرقص الصِبْية مع أمّهاتهم ضاحكين بصوت مرتفع، والفتيات مع آبائهن، وهنَّ يثابرنَ ليكنَّ ساحرات وأثيرات، ولأن يصبحن كبيرات من الآن - آه لو كنَّ يعرفن!

فوق حلبة الرقص الفسيحة المتوّجة بمصابيح صفراء وزرقاء وحمراء وخضراء، بدأت الأوركسترا تعزف النغمات الأولى من أغنية **خارج الفصل**. يستغلّ البعض عذوبة اللحن للتداني؛ وآخرون

للالتصاق والانصهار، وللشروع بتمهيدات تثير البشرة والأعضاء الجنسية، قبل أنْ يتذوّقوا ويفترسوا بعضهم الآخر في الكثبان الرملية أو في الغرف المستأجرة على شاطئ البحر. أما نحن فلم تكن لدينا الرغبة. لم تزل أصابعنا تستكشف، تسحق، وشفاهنا تلتهم، يلهبنا هذا الشغف الوليد، غير المتوقع - الذي سيهدم حياتنا السابقة.

ثمة امرأة وحيدة هناك، في الخامسة والثلاثين من عمرها تقريباً؛ أشعلت لتوها لفافة تبغ - ونار القداحة هي التي جذبت انتباهنا. نظرَتْ إلى الدخان يتطاير في الليل، وتابعته بعينيها حتى تلاشى تماماً، كما نتابع ببصرنا، ولزمن طويل أيضاً، شخصاً يهجرنا، حتى بعد أن يختفي. تقوم ببضعة خطوات راقصة، لكنَّ الوحدة هي مراقصة رديئة. تحرم من التهور وتُرغم على البشاعة.

ثم تبتعد نحو البحر، وهي تتمايل بشيء من الوقاحة، حتى تبتلعها الظلمة الباردة.

في إحدى الحانات المُصادفة، نشتري كأسي نبيذ. نبيذٌ رديء، شفاف مثل شراب الرمان، لكن سيان. نقرع قدحينا إحداهما بالآخر، بصمت، في الضجيج وصيحات الآخرين، وأرفع قدحي بنهضة متهورة، معبِّرةً عن أمنيتي بأن لا يتغير شيء بعد الآن، وألا تعود مونيك أبداً . وكأنَّ الله موجود هناك في الأعلى، يصغي إلى أمنياتنا وهمومنا على الأرض، تبدأ النجوم الأولى الملونة من الألعاب النارية تضيء في اللحظة ذاتها التي أرفع فيها قدحي إلى السماء، نحو الشمال، نحو آرديلو؛ هذا هو تعميدنا؛ ويلتقط البحر منها شذرات عابرة؛ شظايا مجوهرات: ألماس وردي، تورمالين بارايبا، ياقوت أصفر، تنطفئ كأنَّها شعلات صغيرة حين تلامس الماء.

عندئذٍ ينفجر روبير ضاحكاً، وضحكته هي هدية.

* * *

أسأله فيما بعد. ويحكي لي. لديه أيضاً ثلاثة أبناء مثلي. أطأطئ رأسي مبتسمة. مهندس معماري. كان يصمم منازل جميلة منذ زمن طويل، بخطوط جريئة ورسوم مبتكرة، ثم راح يصمِّم منازل بشعة. لم تكن النقود تصنع الذائقة. ولم تكن تصنع المتعة. وبعد ذلك الأبنية، وهي عبارة عن جحور يُحشر فيها أكبر عدد من الناس، جدران من الورق المقوَّى لتخفيض التكاليف، وبلاط صُنِعَ في آخر العالم يتشقق إذا ما سقط عليه شيء ما. كان يترتَّب عليه أن يبني بسرعة، فالأمر يتعلَّق بالسياسة والانتخابات والرشى. وهنا يكمن الاشمئزاز، لكنَّ الشجاعة لم تسعفه قط ليتوقَّف ويحقِّق حلمه ببناء منزل خاص به. إلا أنَّني يا لويز منذ الأمس، منذ تناولنا قدح الشمبانيا في ماهوغاني، ومنذ ساقيك الشَّبيهتين بالبوصلة، ومنذ رقبتك، هذا ما قرَّرت أن أفعله إن وافقتِ: سأبني منزلاً، منزلاً لأجلي ولأجلك، مكاناً لم يعِش فيه أحد آخر قبلنا، وليس لجدرانه ذاكرة أخرى غير كلماتنا وتنهداتنا وأنفاسنا. لن يدخله شيء إلَّا إذا اخترناه سويةً.

أداعب وجهه وأدعُ دموعي تتدفَّق - وأأسفاه على مساحيق تجميلي.

- موافقة يا روبير. هذا ما أرغب به أيضاً.

أجد نفسي مجنونة مرة أخرى. وأحبّ ذلك.

* * *

فجأة، ضوضاءٌ مخيفة في السَّماء جعلتنا ننتفض.

توقَّفَت الأجسام عن الرقص، وصمتتْ الضحكات، وصرخ طفل.

طائرة مروحيَّة. ضوضاء حرب.

ننظر جميعاً ونحن مذهولون إلى الطائرة تحلِّق على ارتفاع منخفض جداً، وتتجه بعيداً نحو البحر، هناك حيث ينبعث ضوءٌ أزرق دوَّار. تثور الرمال أثناء عبورها وترسم حجاباً طويلاً، قطاراً من الألم. تهبط المروحيَّةُ بعد بضع دقائق تقريباً. ثمَّ تنطلق شمالاً من جديد، ويبتلعها الليل.

يرينُ صمتُ نهاية العالم على السدِّ، قبل أن تتعالى من جديد أغاني الحفلة الراقصة والضحكات. الحياة.

ميشيل دو نوستردام، الملقَّب نوستراداموس، أخطأ.

لم يأتِ ملك عظيم مرعب من السماء، ولم يهدم توكيه - كما هدمتها قنابل سلاح **الجوِّ الألماني** قبل تسعة وخمسين عاماً.

حين استيقظنا هذا الصباح من 15 يوليو بعد ليلتنا الأولى معاً، كان الطقس رائعاً والسماء صافية، تشبه أزرق كلاين(*)؛ نشرَ الأطفال فيها طائراتهم الورقيَّة الكبيرة، بأشكال مثلَّثات ومعيَّنات وبعض التنانين الصينيَّة.

غريبة هي تلك اللحظة التي تستيقظ فيها الحقيقة القاسية بعد العماء. العيون المتعبة. الازرقاق يطوِّق العيون. التجاعيد. وبداية بقع الصدأ على اليدين.

لكن كلّ واحد منَّا وجد الآخر جميلاً. وتصارحنا بذلك.

ثم أخذنا حماماً معاً - ولم أكن أتخيَّل أنَّني قادرة على فعل هذا الأمر في زمن مونيك. لأول مرة في حياتي، وأنا في سنِّ الخامسة

(*) نسبة إلى الرسام الفرنسي إيف كلاين (1928-1962) الذي اشتهر باستعماله لهذا اللون.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

والخمسين، غسل لي رجلٌ شعري وجسدي، تردَّد لبرهة وهو ينظر إليه، لكنَّني شجعته. غمرتني متعة جديدة مشوَّشة وقويّة. حين قبَّلَ خدي، شعرت بدمعة على خدِّه.

كنَّا هناك الآن.

ولم يعد بوسعنا التراجع.

* * *

لسوء الحظ، لم أحجز في فندق ويستمنستر إلَّا لليلتين، وأصبحتْ غرفتي مؤجَّرة لنزيل آخر في المساء نفسه. راجعتُ الاستعلامات، لا توجد أيّة غرفة شاغرة في الفنادق الأخرى في توكيه وآرديلو، ولا حتى في إيتابل. نحن في أسبوع 14 يوليو يا سيدتي. إنَّه من أعظم أسابيعنا في السنة. قبله، تصول الريح وتجول. وبعده، العواصف تتوعَّد.

أمضيتُ أنا وروبير أكثر من ساعة على الهاتف، وتوصّلنا إلى إيجاد غرفة في ويسان على بعد ثمانية وخمسين كيلومتراً شمالاً. غرفة جميلة على البحر في فندق باي.

غادرنا بعد الغداء في سيارتي. لم نكن نريد العودة، ولا التبشير بما لا يمكن تعويضه. كنَّا نريد أن نستفيد من وجودنا معاً أكثر، وأن نظلَّ نتذوَّق بعضنا، وأن يُتاح لكلٍّ منَّا الاقتناع بالآخر.

وقت للحب، ووقت للبوح، ووقت لصنع الذكريات.

لكن قبل ذلك، سيترتب ألّا يتحطم، في العابر والزائل وفي عشق الصيف المنفلت من العقاب، ما ألهب جسدينا هنا وما حرّرته كلماتنا وحركاتنا المتهوّرة المكتشفة، وكل ما ستغيره فينا وإلى الأبد

رغباتنا وشهواتنا الجامحة؛ وإنَّما أن يغدو ملح ودم حياتنا. حتى النهاية. ليصبح في نهاية المطاف أحدنا الآخر. عندئذٍ فقط، تأتي عبارة بعد ذلك.

بعد ذلك، ستوجد منازل نفرّغها وذكريات نمحوها ومفروشات نبيعها. ومنزل نبنيه.

بعد ذلك، ستوجد حياة جديدة، ومفردات جديدة. وثقة مطلقة. ونهائية.

بعد ذلك.

* * *

كان الفندق متواضعاً ولطيفاً؛ واستقبلنا بالترحاب. يوجد كثير من الناس على الشاطئ، معظمهم عائلات. أصبحنا فجأة بعيدين عن أجواء توكيه وغطرسة بعض الباريسيين والعنف الفظ لبعض الشباب. ويسان (تُلفظ وي-سان في نورد-با-دو-كاليه) هي بلدة صغيرة تقع في مركز خليج بين جرفين صخريين. جرف كاب غري-ني، ارتفاعه خمسة وأربعون متراً، وجرف أعلى يدعى كاب بلانك-ني (مئة وثلاثون متراً)، مثالي في حالة الحزن العميق بسبب الحب. يسبب الانجراف هنا أضراراً مأسوية ويعيد رسم خارطة الساحل كل عام. يأتي المصطافون من أجل الشواطئ اللانهائية والنزهات والهدوء وجمال الجروف الصخرية وغروب الشمس. أما أنا وروبير، فقد جئنا لنستنفد فيها حبنا.

أمضينا ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ في السرير. مارسنا الحب غالباً، وتعلمنا أنْ نشارف على الهاوية، وكبحنا مقاوماتنا الأخيرة. ثرثرنا

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

كثيراً عن أنفسنا. عن حياتنا المنصرمة، عن أطفال شبوا عن الطوق بسرعة، وعن الصمت المخيم منذ ذلك الحين. عن أحلامنا التي لم تتحقق قط. عن كلّ الفراغات الصغيرة التي تمتص الحياة. عن الحياة التي تنتظرنا الآن. بلا عائق، صادقة وكاملة. صَمَتنا أيضاً لفترة مديدة. لنصغي إلى مفرداتنا الغرامية الجديدة: دقات القلب، الأنفاس، الرعشات، التنهدات، وحتى نوم الآخر.

في اليوم الرابع، خرجنا أخيراً. ذهبنا للغداء في كاب غري-ني، في لا سيرين - **وهو مطعم يواجه البحر، مشروع أسري منذ عام 1967**. المنظر منه رائع. خلال ثلاثة أيام، انقطعتُ أنا وروبير عن العالم؛ وحين وصلنا إلى المطعم، كان الناس يتداولون حكاية واحدة: كان صبيَّان يلتقطان القواقع في هذا الصباح، ولمحا على بعد نحو خمسين متراً ما ظناه في بادئ الأمر صندوقاً صغيراً داكناً أفلت من أحد قوارب القراصنة وعاد من قاع البحر أو من **تايتانيك**. اقتربا منه، وأحدهما سقط مغشياً عليه. لم يكن ذلك الشيء صندوقَ كنزٍ صغير، وإنَّما جسد سيدة عجوز، ممدّدة، منتفخة، بلا شك بعد أن قضت أياماً مديدة في الماء. لم يكشف التحقيق السريع عن شيء -فالبحر أعظم مدمّر للأدلة- عندئذٍ، نقلت الشرطة الجثّة إلى المعهد القضائي الطبي في لانس.

ومنذ ذلك الحين، ليس ثمة شيء. لم يعرف أحد شيئاً. وراح كل واحد يتخيل ويؤلف السيناريو الخاص به، حتى أكثر السيناريوهات قتامة.

تساءلتُ عن الطريقة التي سأموت بها. ذات يوم.

* * *

مثل جميع رواد المطعم، تناولنا طعاماً خفيفاً.

منعتْ ذكرى هذه المرأة المسكينة من تقديم الأسماك والثمار البحرية الأخرى. كان أصحاب المطاعم يتأسفون. هيا، لنتناول إذاً خضاراً نيئة وبعض اللحم، آه، لم يبق لديّ إلّا اللحم المجمد والجبن: لدينا طبق سان-وينيك الرائع من منزل السيدة. عبارة عن ديغراييف وبضع كريات من جبن آفيسنس المنقوعة بالبيرة لمدة ثلاثة أشهر.

بعد الغداء، تنزهنا للمرة الأخيرة على الشاطئ الفسيح؛ نزهة طويلة نحو كاب بلانك-ني.

هبّت ريح دافئة؛ راحت تصفع خدودنا الحمراء، وتذهب بضحكاتنا وتنهداتنا التي تطيل قبلاتنا. كنا على وشك العودة، لكنَّ تلك اللحظة لم تُشعرنا بالهلع.

وإنَّما على العكس تماماً.

سأقود سيارتي إلى منزلي، قرب مدينة ليل؛ وسأصل في موعد العشاء.

سأطلب من زوجي أن يرحل، وألّا يعود ثانية أبداً، ودون أنْ أقدّم له أيّ تفسير. سيحدق في وجهي، في وجنتيّ الورديتين، في شعري الملتصق بسبب الملح، في ساقيّ اللتين ما كنتُ لأظهرهما ثانية، إلّا لأنَّني أصبحتُ عاشقة بجنون، ومغرمة، إلّا لأنَّني أصبحتُ أخص شخصاً آخر بعد الآن، إلا لأن هذه فرصتي الأخيرة. وسيرحل دون أن يكسر شيئاً، ودون أن يطالب بشيء.

سيتلاشى.

عندئذٍ سأستقبل روبير في منزلي، بين أحضاني، على سريري، في حياتي. ولبقية حياتي.

منذ الغد سأصنع الفراغ.

سأرمي الأشياء غير الضرورية.

الذكريات المزعجة.

الأكاذيب الضرورية.

كل التحف والقباحات في حياة مضت في خدمة الآخرين.

سأعرض للبيع أو سأهب كل المفروشات التي لن نحتفظ بها.

ثم سيرسم منزلنا.

طلبتُ بخجل سريراً كبيراً، وحوض استحمام كبير؛ حديقة - أحلم ببستان فاكهة من أجل شيخوختنا؛ طلبتُ أن يظلّ يحبني، كما منذ ستة أيام بالضبط، منذ 14 يوليو المميز حين أهداني نفسه بمناسبة عيد ميلادي، حين قدَّم لي مجونه، وهذا الالتئام الخارق للشمل؛ طلبتُ أن يظلّ يقدم لي خمس زنابق حمراء؛ طلبتُ أن يشتهيني دوماً، دوماً، وأنْ يقبلني دوماً، بشراهة ووقاحة، وقال لي أجل، أجل، يا لويز، أجل، لكلّ ما تريدينه. لكل شيء. كل شيء.

لم يكن يكذب، ورأيتُ للمرة الأولى لون دموعه.

على الطريق الدولي A25 الذي يعيدنا إلى مدينة ليل، وفي أعلى ستينفورد، توقفتُ في استراحة سان-إيلوا لأتزود بالوقود.

عند مغادرتنا، رنّ هاتفي. أرى الرقم يعلن عن نفسه. أجيب. إنه أحد أبنائي. يسأل عن أخباري، ويتمنى لي عيد ميلاد سعيد، ويعتذر على الأخص لأنَّه لم يستطع الاتصال بي يوم 14 يوليو لأنه كان في ذلك اليوم والأيام التي تلته في بيرن، على شاطئ إيرلندا الغربي. يشرح أنَّ ذلك المكان يسمى **البلد الحجري**، تضاريسه صلصالية صحراوية واسعة. وتوجد فيه أكوام من الآثار السلتية العائدة إلى ما قبل التاريخ. لكن لا يوجد هاتف يا أمي، ولا حتى هاتف قديم مصنوع من البلاستيك؛ يعتذر.

- ليس عليك أن تعتذر يا عزيزي. أجل، كان عيد ميلاد رائع. شكراً (أضع يدي على ركبة روبير)... أجمل عيد ميلاد في حياتي... أجل... أجل... إنَّه إلى جانبي... سأعطيك البابا.

عندئذٍ أمدّ الجهاز إلى زوجي.

- خذ إنَّه بينوا.

وأدير السيارة، أقلِع، وأسرع نحو حياتنا الجديدة.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

وردة

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

منذ بضعة أشهر، وبمناسبة مرور خمسين عاماً على زواجنا، أهدانا أصدقاؤنا زوجاً من طقم أدوات المائدة الفضية، وقد نُقش عليها اسمينا، وألبوم صور يضمّ ذكريات جميلة، وآخر أسطوانة للمغني الشهير، **خارج الفصل**.

أحببنا العنوان واستمتعنا باللحن، وبدرجة أقل حزن الكلمات.

تخترق الريح
هذه الدروب الطويلة جداً
أحدهم يبحث
عن عنوان مجهول

بالتأكيد كنا نحن أنفسنا خارج الفصل.

* * *

لم نعد إلى توكيه منذ بضع سنوات.

كانت السنوات قد آلمتنا تماماً؛ أخذ الصدأ يعلو أناملنا،

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

وسيقاننا تضعف، ولم يعد جسدانا ثقيلان وصار بوسع الريح العنيفة هنا أحياناً وغير المتوقعة، أنْ تختطف بسهولة أحدنا.

وقد حافظنا على ذكريات سعيدة هنا، رغم رعب السنوات السوداء، ورغم الجوع والخوف، ورغم الضحكات الفظّة لجنود شباب كانوا ينظرون إلينا نمشي على الشاطئ ويتراهنون حول من سينفجر منّا أولاً، ورغم ما تنتزعه أي حرب ورغم أيّ سلام يحلّ مكانها، ورغم ظلمات المذابح الأشد هولاً ممّا يصفون.

هنا، فيما بعد، حين غُسِلَ الدم ومُسِحَتْ اللزوجة وكُنِسَتْ الأنقاض والنكبات، عندئذٍ، بدأت النزهات على الحصان والخروج في قوارب الصيد، وعلت الصرخات اللامبالية وبعض الضحكات.

عندئذٍ، هَدَّأَتْ رياح الحرية المالحة والكاوية ذاكرتينا، وذهبتْ بعيداً بكلّ مخاوفنا.

عندئذٍ أمضينا ليالينا الجريئة والعظيمة، بالضبط بعد زواجنا في عام 1949 - في حجرة مريحة من فندق ويستمنستر.

عندئذٍ قضينا صباحات شرهة، نتناول شوكولاتة **شات بلو** في شارع سان-جان، شوكولاتة حلوة وسخية كقبلاتنا المتجدّدة التي تبادلناها على الشاطئ البارد والمُعَرَّض للرياح، الممزق غالباً بالصرخات المرعبة لبعض النوارس الكبيرة - بينما يتوافد الأطفال الهستيريون الشياطين وأمهاتهم المتعبات.

هنا، ظلّ إرهاق الأهل موجوداً دوماً؛ بلا شك لأنَّ البحر بعيد غالباً، لأنَّه ينبغي المشي زمناً طويلاً لبلوغه، ولأنَّه خلال هذه الفترة تتخامد الرغبة وتتبدى تفاهة الأشياء.

يصرخ الأطفال، ينفد صبرهم، يدفعون بكلّ قواهم أجساد

أهلهم المتباطئة، مثل صخور ضخمة؛ يكتشفون، من حيث لا يدرون أيضاً، عُنف نفاد الصبر.

هنا، في الليل، يحدث الجَزر ويتراجع البحر. يصبغُ القمرُ بلونٍ فضي قممَ أمواجه المتعبة التي ترسم اليوم تغضّنات شبيهة بالتغضنات على وجهينا العجوزين؛ وتشير إلى حياتينا المنهكتين. كانت هذه الأمواج ترسم منذ خمسين عاماً تقريباً طرحات عروسين، شفافة ورقيقة، تركناها تطير ونحن نزيحها، أحدنا للآخر، خجلين وشرهين في آنٍ معاً.

التقينا على بعد بضعة كيلومترات من هنا، ذات صيف، قبل ستة وخمسين عاماً.

التقينا في فوضى الأجساد، وروائح اللحم المقززة، في ضجيج الرعب، دون أن يُتاح لنا أن نعرف إن كنا سنبلغ سن النضج، ومرحلة الشغف.

كنا في سن التاسعة عشرة والعشرين.

* * *

كانت الكهرباء قد عادت.

صرنا نجد من جديد الخبز - وأيضاً هذا **الخبز** العفن دون خميرة. وتَحَوَّلَتْ بضع حدائق صغيرة إلى زراعة الخضار وأصبحت تنتج البطاطا والكَرَّات والجزر والملفوف واللفت والبقول. وانتشرت صناعة العجة من مسحوق البيض المجفف. وعادت الأمعاء والنقانق للظهور، يجلبونها من ويميرو وإيتابل وبوسون. لكن كثيراً من الأشياء ظلّت مفقودة. كالقهوة أو آجر الفحم.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

عندئذٍ كانوا يمزجون غبار الفحم مع الصلصال اللزج حتى يغطوا النار ويوفروا الكربون لأطول فترة ممكنة. كانت القهوة مقننة ورديئة. ويطلقون عليها اسم **مالتاكاف**. كان البعض يذهبون للبحث عنها في بلجيكا، ويعودون بالتبغ من أجل الرجال وبصابون سانغليت، يخبئونهم في بطانة معاطفهم.

كان أربعون ألف ألماني يعيشون هنا، تركونا في نهاية المطاف وشأننا بعد أن نهبوا الفيلات والفنادق المجاورة، ودمروا فندق أتلانتيك الكبير وشحنوا معداته إلى ألمانيا لصالح منظمة تود. ثم انشغلوا في بناء جدران يفترض أن تحميهم من إنزالات محتملة للحلفاء. وأبعد من ذلك، باتجاه الهافر، **راحت البحرية الألمانية** تنصب بطاريات المدفعية الثقيلة الوحش ف1 والوحش ف2 في الرمال، هناك حيث حلمنا أغلب الأحيان حين كنا أطفالاً ونحن ننظر إلى النجوم، وحفرنا الكثير من الحفر الصغيرة لنلعب بالكريات، لم يعد يوجد إلّا التحصينات والألغام وطُبْرُق المرعبة. وعلى الشواطئ نُصبت ركائز -**ركائز رومل** الشهيرة لمنع الطائرات الشراعية والمظلات من الهبوط- تحطّمت عليها أحلامنا بالحرية. كانت طفولتنا قد دُمِّرَتْ ولم يبقَ فيها شيء جميل. الضعف والعار فقط. غضبٌ لا طائل منه فقط.

لم نعد نذهب إلى المدرسة. أخذنا نعمل بين النساء والأزواج الضعفاء - بعض الجروح الخطيرة، بعض حالات التيفوس والزحار البكتيري، ودوماً غضب هائل. أحدنا في مشفى كوك، مع الراهبات؛ والآخر في فندق ماريه.

أحدنا ينظف قذارات الأجساد، والآخر قذارات الإنسان.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

اختفى أهلنا مع بداية قصف **سلاح الجو الألماني** على المطار قبل ثلاث سنوات. ولم تعِش أم الآخر بعد ولادته. أما أبوه فتطوع في المقاومة، والتحق في فصيلة جورج-بايارت في شبكة النقيب ميشيل، ولم يعرف أحد خبراً عنه، ولا حتى في كتب التاريخ فيما بعد.

أصبحنا أيتاماً.

جذبت مأساتنا أحدنا للآخر. لم يولد بيننا حب من أول نظرة، ولم توجد نجوم ولا قلب يخفق ولا إجابات جميلة من الكتب، وإنما فقط نظرة؛ نظرة عاصفة، حبل مشدود يربطنا.

وفي عصر ذلك اليوم، وقعت انفجارات قرب مصبّ كانش.

كنا نحو مئة تقريباً. ركضنا نحو شاطئ الكورنيش. كان الجنود الألمان يصرخون **لغم! لغم!**

طارَ جسدُ رجل بعيداً. انْتُزِعَتْ يداه من معصميهما، والتفّت أصابعه على نفسها لبرهة، راسمة زخارف دموية ساحرة، كالتي ترسمها فرشاة أرجوانية، ثم سقطت فجأة كفراخ العصافير المصابة بالرصاص، وتحطمت في ضجة مخنوقة.

أخذنا نركض سوية، جنباً إلى جنب، لكنَّ دوي طلقات قريبة جداً منّا، جعلنا نغوص في الرمل متحاضنين. وشعرنا أنّه لم يعُد لنا شكل ولا جسد ولا كتلة ولا وزن.

آنذاك، نحن، روز وبيير، اللذين لم يكن أحدنا يعرف الآخر، صنعنا هذا الوعد اليائس. هذا الزواج.

إذا ما نجونا من هذه الحرب معاً، فسنموت معاً. ذات يوم.

* * *

وجاء هذا اليوم.

* * *

كانت توكيه قد دُمِّرَتْ.

في الرابع من سبتمبر عام 1944، حرر الجيش الكندي مدينة خاوية من دون قتال، مدينة مهجورة؛ يجلِّلها العار. كنّا قد هربنا قبل بضعة أسابيع، وفي غمرة الارتباك أضاع أحدنا الآخر.

وبقينا ما يقارب الأربع سنوات لا يعرف أحدنا خبراً عن الآخر. كتبنا رسائل ضلّت طريقها. رسائل أرسلناها، كيفما اتفق عن ذكرياتنا، إلى مراكز البريد والبرق في المدن والبلدات التي سبق وتحدثنا عنها أحياناً أثناء تناولنا لشراب الليمون في أمسيات لقاءاتنا، أو أثناء نزهاتنا على الكثبان الرملية. رسائل إلى آراس حيث ولد أحدنا. إلى بابوم حيث تسكن خالة. إلى نيس حيث كان يذهب الآخر أحياناً لقضاء عطلة قبل الحرب. إلى إيز. إلى فانس. إلى فيلغرانش-سير-مير. إلى مدنٍ لم تعرف غضب الرجال. وإنَّما عرفت فقط جبنهم.

في تلك الأمسيات تعلّمنا كيف نكتشف أنفسنا ببطء، دون أن نفكر بشيء، ودون أيّة فكرة عن الغد، ودون أن نستخدم أفعالاً مُصَرَّفَة بزمن المستقبل - رغم بعض الهمسات المحمومة للرجال التي كانت تتناول إنزالاً وشيكاً لقوات الحلفاء. ذات يوم. وتتنبأ بعالم جديد.

سبق أن رهن كلّ واحد منا نفسه للآخر دون أن يكون لديه شيء يهبه.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

احتاجت فرق إزالة الألغام إلى ثلاثة سنوات لتبطل مفعول اثنين وتسعين ألفاً وسبعمئة وسبعة وأربعين لغماً وعبوة ناسفة زرعها الألمان في بلدة توكيه - وهو ما جعلها تتصدر بلدات فرنسا في عدد الألغام. ثم أزيلت الأنقاض بتحريض من الدكتور بوجيه. تراجع الألم وانمحت الندوب. أعيد بناء المدينة وجرى توسيع المطار وعادت الابتسامات بحذر. وفي المساء صارت تُسمع أحياناً قهقهات على شرفات المقاهي، وضحكات معدية.

في هذه المدينة التي راحت تستعيد الحياة، التأم شملنا بعد أربع سنوات من الفرار والقصف.

يوم الاثنين الموافق 20 سبتمبر عام 1948.

كان الطقس بارداً، ودرجة الحرارة لا تكاد تبلغ السبع درجات. التقينا على زاوية تقاطع شارعي لندن ولا بيه (السلام)، كأنها مفاجأةُ فيلمٍ اسمَي هذين الشارعين، وكأن هذا الالتئام للشمل مسرحية رومانتكية. كانت الريح تبعثر شعرنا، فيخفي لبرهة عيوننا، وكما هو الحال في لعبة الأطفال التي تقوم على إخفاء عيون الآخر وسؤاله من **أنا؟ من أنا؟** تَعَرَّفَ أحدنا على الآخر مباشرة.

لم تكن هذه السنوات الأربع قد عركت وجوهنا بعد. لم نتحدث على الفور. ولم نتبادل الابتسامات في الحال. وإنّما سادت تلك اللحظة المرعبة من اللايقين، وعيونٌ تبحث عن علامات. خاتم زواج. فتى يختبئ تحت معطف كبير. صوت واضح يصرخ **ماما!** رجل أو امرأة يلحق بالآخر حاملاً صحيفة أو خبراً أو باقة ورد؛ حياة لا تزال تكتب.

اجتزنا العامين الأخيرين من الحرب سوية؛ وتُهنا عن بعضنا لأربع سنوات، لكن كل واحد منّا انتظر الآخر.

ودون أن نختار بعضنا البعض، مثل معظم الناس.

راحت شفاهنا ترتعش. واتسمت قبلتنا الأولى برعونة قبلة حقيقية أولى. أخذنا نضحك ونبكي في الوقت ذاته؛ ناجيان التقينا. وتجرأنا على الإيمان بالغد فجأة. وبكل المستقبل.

عندئذٍ، لم نعُد إلّا واحداً. وإلى الأبد.

السدّ أسود اليوم في توكيه بسبب ازدحام الناس.

دراجات هوائية، زلاجات (تعلمنا حديثاً هذه الكلمة، لكنَّنا لسنا متأكدين تماماً من طريقة كتابتها)، عربات، دراجات صغيرة تؤلف باليه فرحة. عائلات تتنزه، وهي تحتمي من الريح في ملاجئ من القماش -تشبه الملاجئ التي صوّرها كارتييه-بريسون على ضفة المارن أو فوق حصى شاطئ ڈِيِيب. أطفال، بألوان ذهبية بحسب المشتهى، يحثون أهلهم على شراء السكاكر أو أقراص الشوكولاتة.

أما بالنسبة لنا، فإن وجبات الصيف الخفيفة كانت قد اتّسمت بطعم البسكويت الجاف وشراب الليمون الأبيض، وأحياناً طعم كاراميلا بيجي. كان الآباء في الحرب، وكانت الأمهات تعتني بالعائدين منها، بعد أن فقدوا في المعارك ذراعاً أو عيناً أو فكاً، أو قواهم العقلية، أو حتى الكل في آن معاً أحياناً.

على الشاطئ، ثمة أجساد تتبدى بلطف خجولة، كأنَّها تخرج من الشرانق؛ وأخرى تعرض نفسها بفخر في مباريات كرة الطائرة. تفوح رائحة عطور تعاند زيت الشمس والتبغ البني والملح والمحارات الميتة.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

في أعلى جادة لويزون-بوبيه، ثمة امرأة شابة متعبة، منزوية تقريباً، تقرأ **رسائل شاعر شاب** لرينيه ماريا ريلكه. كانت شاحبة على نحو مخيف، كأنها مريضة - مادولين جديدة في رواية **زنبقة في الوادي** لبلزاك، ضحية سل رئوي حادّ غير قابل للشفاء. وبقربها رجل يجلس هو أيضاً على أريكة قماشية زرقاء صغيرة، ينظر إلى البحر دون أن يراها. يبلغ عمره نصف عمرنا، لكنَّه يبدو منهكاً.

نحب هذه الناصية من الشاطئ. نرتادها كلّ صيف منذ عشرين عاماً. شهدنا بناء مركز العلاج بمياه البحر، مفخرة المدينة. رأينا أطفالاً يصنعون خلائط من الرمل، يسبحون، ويلعبون أدوار القراصنة، ثم فيما بعد، رأيناهم ينفشون ريشهم أمام الفتيات اللاتي كبرنَ هنَّ أيضاً. أحببنا تلك السنوات، أحببنا راحتها واطمئنانها الرتيب. ابنتنا جين كبرت هي أيضاً في فصول الصيف تلك، في صخب الأمواج المنتظم لهذا البحر الذي يتراجع بعيداً، بعيداً جداً، بعيداً إلى حدّ يبدو معه أنَّه يتلاشى مع كلّ حركة مدّ وجزر.

اليوم، نحن مَن جئنا لنختفي.

نفرش مناشفنا؛ يا الله كم أصبحت هذه الحركة التي كانت فيما مضى بغاية الخفّة واللطافة، كم أصبحت معقّدة ميكانيكياً. صرنا بحاجة إلى أنْ نكون اثنين حتى نستطيع إنجازها، وذلك بسبب الريح وبسبب أذرعنا الملتوية؛ وكما هو الحال دوماً، جَعَلَنا هذا نضحك.

تواطؤنا القديم يجعل الناس أحياناً تبتسم.

منذ قليل، حين وصلنا إلى هنا عبر الكثبان الرملية، صادفنا عاشقين فتيين. أوه، لا بد أنْ الفتاة في الثالثة عشرة من عمرها

والفتى في الخامسة عشرة. كانا ممدَّدين على الرمل، وينظران إلى السماء كأنهما يحاولان قراءة المستقبل. يتحدثان عن نهاية العالم الوشيكة، يتحدثان عن عشقهما. يتحدثان عن قبلة، قبيل نهاية العالم بالضبط.

كانا جميلين. كان يقول لها انتصار (فيكتوار)(*). يكتبان كلماتهما الأولى، تلك التي لم نستطع قط أنْ نتبادلها في ما بيننا بسبب ضجيج الحرب. وخلال برهة، تعانقا. باختصار. حيوانان صغيران يلتقيان. ثم نظرت إلينا الفتاة الشابة، ونحن نمشي ببطء، وظهرانا محنيان برفق، وابتسمت لنا. كان الحزن قد رسم لها فماً أنيقاً. وفجأة أصبح الشاب جدياً.

كانا يتعرفان على حرب أخرى.

حرب الرغبة. حرب اللايقين.

* * *

تزوجنا بعد شهرين من التئام شملنا، في نوفمبر عام 1948.

واجهتنا صعوبة فائقة في الحصول على الوثائق الضرورية، بسبب الشك الذي كان يدور حول أب أحدنا، ذهب للالتحاق بالمقاومة ولم يعرف أحد عنه خبراً أبداً. تقرّر تسجيله في عداد المفقودين. **عداد المفقودين**، كما لو أن أحداً نقله إلى مكان ما. هناك حيث يختفي المرء. حيث لا يبقى منه لا عظم ولا رفات. كانت الصيغة مرعبة. كنا يتيمين. وزواجنا سيؤسّس أسرتنا.

(*) فيكتوار: تعني انتصار باللغة الفرنسية.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

كان الاحتفال بسيطاً. أمام الكنيسة في الساحة، وُضِعَتْ طاولة. وفوقها غطاء مائدة أبيض، كثوب الرقص، شرشف الليلة الأولى. جَلَبَتْ راهبات مشفى كوك الكاتو، وجاء الأخ الكاهن ببضع زجاجات فاخرة، وضحكنا. أخرج موظف البلدية مارسيل أوكورديوناً من نوع كروسيانللي لونه أحمر مثل عيد الميلاد، وغنت امرأة أغنية لبياف بإتقان: **هيا ارقصي، يا مادولين بقلب خافق، فأنا مهووسة بعشاق باريس** -كانت قد تجنَّبت ذكر **شريكي في الرقص**- كان شهر نوفمبر يفوح بعطر مايو، وراحت ريح الحرية تهب؛ وهذا الهبوب هو هدية زواجنا العظيمة.

أقمنا في فالانسيين، ووجد كلانا عملاً في متجر ماسكو الكبير الذي يبيع منسوجات بالمتر وخردوات ونماذج فساتين وأقمشة للمفروشات وستائر وشراشف. كان هنالك الكثير من أعمال الخياطة والرفء والرتق بعد سنوات من الرماد والفوسفور الأبيض والدموع. ملابس وبشرة وقلوب.

كانت المدينة، كما المتجر، قد قُصِفَتْ وكانت إعادة الإعمار بطيئة ومؤلمة، لكنَّ الورود وأحلام الناس تنمو من جديد دوماً.

أحدنا كان بائعاً والآخر يُصلح الأثواب.

كان جو المتجر وديعاً؛ الجميع متفاهمون بسبب رقة ولطف السيد جان المدير.

كنّا نسكن منزلاً صغيراً، في شارع ميلهوم، يطلّ على حديقة صغيرة حزينة. زرعنا فيها ملفوفاً وجزراً أبيض وقلقاساً رومياً وبندورة ولفتاً - مثل كلّ أطفال الحرب. ومع أن فيلم الرسوم المتحركة بامبي

ظهر في ذلك العام في السينما، ومع أنّ السحر الوافد من أميركا حاول أن يجعلنا نحلم، إلّا أنّ حياتنا كانت تشبه إلى حدٍّ بعيد أفلام هنري دوكوان وجوليان دوفيفييه. رتابة مملّة، وحزن يمكنه أن يرد الخبث، وبضع ضحكات لم تزل نادرة، وعلى الأخص، قلق لم نفلح في التحرّر منه تماماً. لم تزل حياتنا تفوح برائحة العار. ولم يزل لها طعم كدمة لا تمحى. ظلت مفرقعات 14 يوليو أو انفجار في أنبوب انفلات غازات السيارات، ظلت لزمن طويل تجعل أحدنا يرتمي في أحضان الآخر مرعوبين. لكن دموعنا كانت تنتهي دوماً إلى الضحك لأنّنا بقينا أحياء، ولأنّنا بقينا معاً.

كانت أعمال متجر ماسكو تسير على ما يرام. يرتاده الزبائن من أماكن بعيدة، ويعودون منه بنجوم لامعة في عيونهم. وفي سبتمبر عام 1950، نظم السيد جان «تنزيلات على الطريقة الأميركية» - اكتشف طريقتها في الصحف. يقوم مبدؤها على تخفيض الأسعار ساعة بساعة؛ وتتمثّل المعضلة السعيدة عندئذٍ بالنسبة إلى الزبائن في الاختيار بين شراء تلك السلعة بذلك السعر، وهم يعرفون أنّها ستغدو أقل سعراً في الساعات التالية، لكنّها قد لا تعود موجودة. كان هذا يفسح مجالاً للصرخات الهستيرية والرهانات ويُحْدِث بلبلة فرحة. عشية تلك التنزيلات -التي لاقت نجاحاً منقطع النظير- دعانا السيد جان جميعاً إلى **فيو مانوار**، في أولنوا-ليز-فالنسيين. كانت صاحبته السيدة بوتي تقدّم فيه لحم الحصان المسلوق -تأتي به من عند بيشون الذي كان ينزّه جواده بلجام حتى يُظْهِر للجميع أنّ لحومه مصدرها حيوان فتي وليس من أحصنة هرمة، وذلك إفحاماً لألسنة السوء- وبطاطا مهروسة مع القليل من حساء اللحم. كان كل شيء سيئاً لكن

النبيذ، الكثيف مثل الدم، كان يُنسي كل البؤس. كنّا سعيدين بينهم. وأخذت الضحكات تعود.

في عيد الميلاد من العام التالي، تلقينا راتباً مضاعفاً، وهو ما أتاح لنا الحصول على مسكن أكبر يتضمن غرفة صغيرة إضافية.

فكرنا أنّها تناسب مهد طفل وفي الأشهر التالية، تناسب سرير طفل.

* * *

وُلدتْ جين بعد أربع سنوات، في مطلع صيف 1955؛ عام فيلم **الليل والضباب** لريزني وحقيبة شانيل - حقيبة اليد النسائية التي سنحلم زمنا طويلاً برؤيتها في ذراع روز.

لم تكن جين رضيعة جميلة على نحو استثنائي؛ عند ولادتها على الأقل. لكنّها مثلت أملاً هائلاً بالنسبة لكلينا، حياة في عالم بلا حرب ودون تلك العذابات التي تنخر الروح. كانت ولادتها سهلة؛ وفي أقل من ساعة، كانت هناك، وسط صيحات الفرح.

حين عدنا إلى المنزل بعد تسعة أيام، كان في انتظارنا بضع أصدقاء من المتجر واثنان من الجيران، ومعهم نبيذ أبيض من بروفانس، وفواكه وأصص ورد - كنّا قد حلمنا لزمن طويل بالورد بسبب اسمه.

شربنا بفرح، وزّعنا الورد: القرنفل، أحمر كرزي موشى بالأرجواني، ذات أوراق داكنة، وورود جورية بلون أبيض موشى بالوردي.

وكما كلّ شيء في حياتنا، راحت حديقتنا تستردّ ألوانها.

ارتجلنا نزهة؛ أكلنا البندورة التي قطفناها مباشرة من الشتلات، وبضع فجلات كبيرة نثرنا عليها الملح بسخاء. ذهبنا للبحث عن زجاجات نبيذ أخرى وعن خبز أسود ونقانق، وللمرة الأولى بعد الحرب ضحكنا دون تحفّظ وبلا حسابات مسبقة وبلا مخاوف من أيّ نوع. مع جين، كانت هذه هي الحياة التي تترعرع، وردية مثل خديها، وردية مثل الورود.

كان صيف عام 1955 صيفاً جميلاً. غنينا لشارل ترينيه وكورا فوكير وفرانسيس لومارك وجورج براسان، ومنحنا جان بضعة أيام إجازة. قررنا العودة إلى توكيه - للمرة الأولى منذ التئام شملنا قبل سبع سنوات. كنا آنذاك أبوين ودودين وأخرقين -سنسخر منهما فيما بعد- تُقلقنا الريح التي قد تلسع عيني جين، والشمس التي قد تحرقها، ويقلقنا أي جفاف محتمل، أو دبور قبيح يحوم قربها. لم يكن لدينا أمهات يعلِّمْننا فن أن نصبح أبوين، ليطمئننا ويحتضننا، حين نكون حزينين أو مجرد منهكين.

تعلمنا أن نكبر مع ابنتنا؛ وربما هي نفسها مَن اعتنت بنا في الصميم.

بعد عامين أصبح لدى جين أخ صغير لمدة أربع وثلاثين ساعة.

* * *

بقربنا تغفو امرأة.

انزلق الكتاب، وراحت الريح تقلب الصفحات كأجنحة الفراشات الكبيرة التي نحب شحوبها المُطَعَّم باليانسون.

وعلى مسافة أبعد وراءنا، تظهر فتاة شابة وحيدة بين الرمال.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

يتبدى الآن ملمح امرأة يغضنُ قسمات وجهها. ثم يظهر فتى بعد بضع ثوانٍ يجري راكضاً ويلحق بها.

يتوقفان.

تبدو شفاههما تتلفظ بكلمات متألمة، كلمات حب، كلمات راشدين إجمالاً. تحمل الريح إلينا جملة قصيرة من جملها. «الحب هو حين يستطيع المرء أن يضحي بحياته من أجل شخص آخر». نتبادل النظرات متأثرين. إنهما نحن أنفسنا قبل أكثر من خمسين عاماً خلت؛ إنهما نحن الاثنين حين تحاضنّا في خوف، مدفونين في الرمال للفرار من الرصاص، وحين تعاهدنا على هذه الأبدية ذاتها. لكن بعبارات أخرى.

ثم ينفصلان. أو الأصح يتمزّقان. تنضم الفتاة الشابة إلى والديها تحت المظلة الصفراء، ويبتعد الفتى نحو السدّ، نحو ضجيج المدينة، نحو جراح أخرى.

تجلس الفتاة على بعد أمتار من والديها، وتسألها أمها أين ذهب لويس. فتنثر قبضة رمل في مهب الريح، كأنّها تذرو رماد هذا الحب الذي يمكن للمرء أن يضحي فيه بحياته من أجل شخص آخر. تهزُّ كتفها ثم تهمس: إنَّه عاشق. تتساءل أمها: وإذاً؟ تبقى الفتاة صامتة. وتلح الأم: فيكتوار؟ فتجيب الفتاة ذات الاسم الجميل فيكتوار بصوت حزين تقريباً: أما أنا فلا. ثم تنهض فجأة وتركض بعيداً نحو البحر. نتابعها بنظراتنا؛ تركض بسرعة، وتعطي ساقيها الطويلتين انطباعاً أنَّها توشك على الطيران. بجعة وردية ممتلئة بالرشاقة. جين تدخل الماء راكضة. يشكّل الرذاذ باقة هي

عبارة عن وردتها الجميلة. ثم تختفي عن أنظارنا، وبلا شك سيقطفها عشاق آخرون.

نتماسك بالأيدي. وتتداعب أصابعنا الصدئة، تحكّ الخواتم. لم تعُد سيقاننا تقوى على الجري نحو البحر مثل هذه الصغيرة فيكتوار، لكن قلبينا لم يزالا قادرين على اصطحابنا إليه.

* * *

لم نتحدث قط عن الحب بيننا.

كانت تظهر لنا بلا شك معجزة نجاتنا من سنوات الحرب، وخروجنا منها والتئام شملنا - ولعلّ ذلك كان اقترانّنا الغرامي. منذ تعاهُدِنا المرعب على الرمل المخضّب بالدم في توكيه عام 1943، صرنا نخشى كلّ ما يمكن أنْ يضيع، وكلمات الحرب هي الأكثر عرضة للتبخّر من أيّ شيء آخر.

لكنّنا كنّا نتبادل الحب.

كان كلّ واحد منّا يحبّ الآخر بين الكلمات والسطور، يحبّه في الصمت والنظرات، في الإيماءات الأكثر بساطة.

كنّا نشعر بالحب في المتعة الأثيرة للقائنا غالباً.

كنّا نشعر بالحب ونحن نمشي على السدّ بالخطى ذاتها، ونحن ننظر إلى الأشياء الجميلة ذاتها.

كنّا نشعر بالحب في كلّ لحظة، دون أن نسعى إلى إطالتها، ودون أن يطلب أيٌّ منّا شيئاً آخر سوى هذه اللحظة الأبدية، وحسب.

لم تسعفنا كلمات الحب بشيء. لم تغطِّ قط على ضجيج

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

الشظايا وصيحات الرعب، ولم تخنق مزيج الآلام؛ كانت ميداناً محجوزاً لأولئك الذين لم يعرفوا صخب العواصف؛ تملأ ذاكرتهم بالوعود. أما ذاكرتنا فكانت مزدحمة أكثر ممّا ينبغي، وما كان يفسح المجال للحب هو ببساطةٍ استمرارنا معاً واجتيازنا الحياة معاً، بأثقالنا ومحننا وأملنا المتواضع.

إنَّه حبّنا **في الصمت**، كما سمَّيناه، هو ما أتاح لنا ألّا نصرخ، وألّا نضرب رؤوسنا في الجدران، وألّا نسلخ جلدنا ونقتلع عيوننا ونفطر قلوبنا عندما غادر ابننا الصغير هذا العالم بعد ولادته بأربع وثلاثين ساعة؛ حين غادره على رؤوس أصابعه، **في الصمت**.

لم يسعفنا الوقت حتى لتسميته.

حاولنا فيما بعد أن ننجب طفلاً آخر. لكن جوفينا أصبحا ميتين؛ قطعتَي لحم عجوزين وقاسيتين وعقيمتين، ذليلتين ومهانتين.

* * *

في يوم 26 سبتمبر من عام 1959، حين كانت جين في الرابعة من عمرها، اختيرت مع أطفال آخرين لتكون في استقبال الجنرال ديغول الذي جاء لتدشين بناء بلدية فالانسيين الجديد. احترق هذا المبنى في عام 1940 لكن واجهته الرائعة نجت بأعجوبة - ما عدا الجرس وتاج كاربو اللذين انهارا دون أن يتأذى أحد. قرر وزير إعادة الإعمار ترميم الواجهة كما هي، وإكمال خلفيتها ببناء حديث.

كانت جين ساحرة. فقد تلاشت بشاعة السنوات الأولى ودأبنا على القول بأنّ رماد السنين السوداء تطاير من وجهها، كما من وجوه الناس، الذين ركنوا أخيراً إلى الهدوء. كانت جين تحمل باقة -من

الورد الوردية- خليط أنيق من الورود القديمة في حديقتنا: ورود دمشقية، وورود أنفان دورليان وورود ماريشال دافوس - لأنَّ هذه الألوان كانت تُعَبِّر عن الفرح وحين تنهض مدينة من حطامها فهذه دوماً لحظة فرح. وكانت باقتها هي التي اختارها الجنرال ديغول ليأخذها حين مدَّ له الأطفال باقاتهم.

وهذا الاختيار سيغيّر حياتنا.

في ذلك العام، بعد مضيّ مئة وأربع سنوات على أحلام الروائي جول فيرن، وتسعة عشر عاماً على مغامرات تان تان، مشى رجلان على سطح القمر.

أمضينا ليلة 21 يوليو في حديقة منزلنا قرب ليون لنراقب الحدث. لم يكن لدينا بعد جهاز تلفاز، وإنَّما منظار متواضع فقط؛ وغفت جين نهاية المطاف بيننا، بعد أنْ شعرت بالخيبة لأنَّها لم ترَ شيئاً، لا المَشَّاء على النجوم ولا أيّ صاروخ براق، وبعد أن أنهكها انتظار الحدث العالمي الذي لم تشاهده. كانت آنذاك في الرابعة عشرة من عمرها. طويلة وشاحبة ومكتملة النمو على نحو جميل، وكانت تفاجئنا أحياناً النظرات المواربة للفتيان في الشارع، ما يجعلنا نشعر بالفخر. كانت طفلة مريحة ومحبوبة ومضحكة أحياناً؛ كانت أفضل من كلينا.

حين رغبتْ أنْ تعرف، روينا لها قصة طفولتنا إبان الحرب. حكينا لها عن لقائنا حين سألتنا عنه، وقفزت حين أخبرناها أن لا، يا جين، لا، لم نُصب بصعقة حب كما في الكتب. وإنَّما كنّا أقل

خوفاً معاً، وكنّا نظنّ أنّنا لن نسقط بسهولة ما دمنا سويّة. وتنهدت، تنهيدة صغيرة سرعان ما أصبحت كبيرة، وقالت: حسن إنّها كلمات حب، تلك التي تفوّهتما بها للتو.

كنّا قد أقمنا قرب مدينة ليون، في فيزان، واقتنينا هناك حديقة ورد كبيرة.

تركنا منذ ما يقارب الثماني سنوات متجر ماسكو، المتجر في فالانسيين، لتحقيق حلمنا بالورود. كنا ننمي الجمال من أحد أسمائنا. وكانت ورودنا جميلة ولطيفة ومحبوبة. بالنسبة إلى معظم الناس كانت ورداً قديمة: ورود كوماندان بوربير، وردة إيبسيلانتي، ووردة أميليا، وردة بيل بيرتوغيز. وردة شابلان بينك كلامبيه ووردة غابرييل بريفات. كان باعة الزهور في المنطقة يأتون للحصول عليها من عندنا، وكان ميزون فيلموران يوصينا على بعض الأنواع النادرة. هكذا فاحت أيامنا برائحة الورود العطرة والعذبة، وأصبحت هي الجمال واللطف اللذين افتقدناهما في طفولتنا. كنّا نظن أنَّ ورودنا تمسح شرور الرجال وقسوة الجبناء، وأنَّها قد تكون لغة حب للخجلين والخائفين ولكل أولئك الذين ترعبهم الكلمات أحياناً لأنَّها تشبه الأسلحة. كان بوسعها أنْ تصنع الخير أو الشر.

كان من الأسهل إرسال وردتين متعانقتين لإيصال رسالة هوى. ست وثلاثون وردة للبوح بهيامه. أو مئة وردة للتعبير بشكل حاسم عن حب لا نهائي: **أحبك بلا حساب، أحبك بلا حدود، آه! لو تعرفين**، بدل التلفّظ ببضع كلمات مستهلكة.

في ذلك العام، ابتكرنا وردة باسم: **جين**. أطلقناه على أزهار مزدوجة تتفتح في أصص الأحياء، ذات لون وردي جميل وغامق،

وتقريباً قرمزي في الوسط، ووردي فضي من الخارج، تحتضنها ورقة خضراء غامقة.

وجدت جين معناها: **من يحب أبويه**.

وفي العام ذاته، افتتحنا متجر أزهار في ليون، في جادة أدولف-ماكس. أحدنا يبقى في حديقة الورود والآخر يدير المتجر.

كانت المرة الأولى التي نفترق فيها منذ التئام شملنا في توكيه، في بداية شتاء عام 1948. إنَّها طعنة في قلبينا.

* * *

على بعد أمتار منّا، تغلق القارئة كتابها بأسف وتضعه جانباً. تنهض بهدوء، متعبة، مع أنَّها تبدو لم تزل شابة. زوجها يقف أيضاً ويساعدها؛ يطوي الكرسيين الزرقاوين الصغيرين، والمظلة الصفراء - التي أعطت لوجه زوجته صبغة ذهبية أكثر من المعتاد، رغم أنَّ السحب في السماء والريح راحوا يوحدون تهديداتهم.

لم ينتظروا ابنتهما. يعتقدان بلا شك أنَّها تسبح نحو لقاءات أخرى. نحو مخاطر عمرها. سيجتمعان بها فيما بعد على الأرجح، في فترات الاضطرابات. *مكتبة الرمحي أحمد*

تحيينا القارئة وهي تغادر، وزوجها يقلدها، قبل أن يبتعدا نحو الطريق، إلى مواقف السيارات الفسيحة التي شوهت جمال شاطئ البحر.

تشارف فترة ما بعد الظهيرة على النهاية.

تعود الفتيات الشابات إلى الحمامات حتى يتهيأن ويصبحن جميلات ومرغوبات هذا المساء؛ حتى يلفتنَ الأنظار في الحفلة

الراقصة. يبدأ الفتيان في شرب القليل من الكحول ليتشجعوا، والرجال ليتجرؤوا أخيراً على التقرّب من النساء، آملين في الحصول همساً على موافقتهنَّ. إنَّها دوماً الحكاية ذاتها، في زمن الحرب كما في زمن السلم، في الصيف كما في الشتاء، حاجة المرء هذه لئلا يكون وحيداً.

هذه الشهية لأنْ يكون محبوباً.

بمرور الساعات، ينحسر البحر، كغطاء يسحبه المرء بلطف، فيكشف عن بشرة صافية عذراء لم تتعرض لأيّ غزو. فيما بعد، سنمشي نحوه، في برودة المساء. ستغوص أقدامنا الحافية بمشقة في الرمل الرطب. سترسمان عليه طريقنا، حياتينا المتوازيتين، حكاية حبنا المديدة.

نشعر لبرهة بشيء من البرد، في اللحظة ذاتها، كما هو دأبنا. يهيم أحدنا بالآخر على الدوام، ومنذ الأزل. نُخرج سترتينا من الحقيبة، ونتساعد على ارتدائهما. ترتعش أذرعنا منذ زمن طويل، وصار جسدانا يرتجفان. إنَّنا عجوزين صغيرين ساحرين؛ يبتسم لنا الناس غالباً، يقولون لنا إنَّنا جميلان، وإنَّنا بخير ما دمنا سوية، وهذه التعليقات العطوفة كانت مثل بتلات رؤوم.

نحن أيضاً نصعد نحو مواقف السيارات القبيحة، نجتاز شارع البلاج، نسلك طريق دوروني وشارع دالوز. نحب السير المتعرج في الشوارع، ونتعمّد ألّا نسلك الطريق ذاتها، ونوهم أنفسنا على هذا النحو بأنَّنا تائهان حتى يعطي كلّ واحد منّا للآخر فرحة العثور على الدرب الصحيح.

هناك في الأسفل، نتعرف على المرأة التي جلست مساء أمس

على طاولتنا في حانة الفندق. كانت قد أثارت مشاعرنا لأنَّها تشبه ناجية - ونحن نعلم بحسب خبرتنا ما يبذله الناجون للبقاء على قيد الحياة. أسرعنا الخطى لأنَّها كانت في أحضان رجل، لأنَّها بدت مسرورة، لأنَّ سعادتها كانت من النوع الذي لا يجرؤ المرء على تكديرها أو إزعاجها، ولو بابتسامة.

وها نحن الآن في طريق العودة إلى فندق ويستمنستر، إلى الغرفة التي نشغلها وتحمل رقم الغرفة ذاتها التي شهدت زفافنا، في جوّ رمادي مغبر وشاحب من شتاء عام 1948. بالتأكيد تغيَّرت الغرفة مثل كثير من الأشياء هنا: المنظر، الرجال الأقل أناقة، النساء الأكثر وضوحاً. وكلَّما اقتربنا من الأشياء أكثر، كلَّما زال الغموض عنها. كنّا شديدي التأثر بالحياء والصمت؛ ونفضل ظلام الغرفة العطوف على ضوئها الجارح أحياناً. كنَّا نتعاشر بودّ عميق دون أن يتمعن أحدنا الآخر بدقة. فجمال الآخر يكمن في جزءٍ من الغموض الذي يظلّ محتفظاً به؛ هذا الجزء الذي لم يعُد يجذب أحداً الآن. «يجب أن يتزوج المرء في الوقت المناسب» قال الرسام دومييه ذات يوم لإينغر. فردّت عليه الكلاسيكية الجديدة: «وإذا أخطأ الوقت؟».

تغير العالم ونحن نغادره.

نأخذ معنا دوي القنابل وصور الأجساد الممزقة، والرمل الذي يشرب الدم بنهم الورق النشاف؛ نحمل معنا شيئاً من خوف الرجال؛ نحمل معنا ذكرى منازلنا المهدمة، ذكرى الصمت الذي يعقب العويل؛ نحمل معنا أشباحنا ويأسنا من الحياة.

وبعد ذلك، ننزل إلى حانة الفندق.

هنالك الكثير من الناس والكثير من الضجيج. بعض النظرات

تحرق. وبعض الضحكات هي أبواب تُفتح. فجوات تنفرج، ودعوات لطيفة. تنهداتٌ تَعِدُ بلياليٍ طويلة؛ بضع ضحكات مختصرة، لحظات عابرة.

نجلس على انفراد تقريباً - بسبب عمرنا ولا شك. نطلب قدحَي بورتو. من **الكاستيلونو المُخَزَّن**. هذا نهمنا. هذه علتنا الوحيدة. إنَّه نبيذ ذو نكهة لاذعة، تغلب عليها الفاكهة الناضجة ومربى الفاكهة الحمراء، ثم تكشف عن درجات الفانيلا والقهوة. له كثافة قبلةِ مريضٍ. نتذوقه بجرعات صغيرة. يفعل الكحول فعله ببطء، وتتسكع أرواحنا. لا نتكلم؛ ولا نتفوه بالكلمات على أيَّة حال.

نظراتنا تعرف.

ترى نظراتنا ثانية، في هذا المساء، الأسفار التي قادتنا إلى هنا. أوديسا حياتنا. ترى هذه الرغبة الجامحة باحتضان الآخر، تلك الرغبة التي تفتّحت على رمال توكيه الأرجوانية.

ترى نظراتنا ثانية ابننا الصغير الميت؛ وأبناءنا الآخرين الذين لم يولدوا.

ترى من جديد الأشواك والورود؛ والسنوات الأكثر عذوبة بعد ذلك. وجين التي كانت تكبر وتتفتح.

ترى سنوات ابنتنا العشرين الساحرة، والدوامة المرحة لعام 1970، وأغاني نيكول ريو، وأغنية جوداسان العائمة **الصيف الهندي**، وسراويل بقوائم الفيل، وتسريحات الشعر المجعد بمهارة للنجمات الأميركيات.

ترى من جديد هذا الخطيب الأنيق.

ترى الطريقة التي يمسكان فيها هو وابنتنا جين، أحدهما بيد الآخر، وهما يقسمان، كما أقسمنا، أنَّه لن يفرّقهما شيء أبداً. وبعد ذلك زواجهما، ومن ثم زياراتهما للمنازل الكثيرة الغرف والمحاطة بالحدائق والأزهار، وأيضاً الألم الممض في البطن، وجهاز الأمواج فوق الصوتية يعزز الشك، والماسح الضوئي الرديء، وعملية فتح البطن التي تكشف عن مدى الألم، وعن حجم الأضرار، كأنَّه ميدان معركة، والزوج الذي يغمض عينيه ولا يفتحهما ثانية، ورأسه الذي ينزوي جانباً، لن يفي أبداً بوعوده عن الأبدية.

ترى نظراتنا هذا المساء غضب جين اللانهائي، حربها الشخصية ودموعها وصرخاتها، وهذا الصمت المقزز فجأة الذي يخنق الصراخ، وأخيراً الحزن الهائل والشديد الذي ينمو في هذا الصمت.

ثم رحلت جين إلى الهند لتروّض مخاوفها وتتجنّب الموت. كانت قد مشت طيلة أسابيع حتى جفت دموعها. والتقت بمشائين آخرين، تائهين هم أيضاً. وبعد ذلك، وضعوا حقائبهم معاً في باهيبور هاجامباتي، إحدى القرى الموحشة في إيتار براديش، وهو واحد من أفقر الأقاليم في العالم، وبدؤوا يهبون ما حرمتهم الحياة منه. أخذنا نتلقى رسالتين مسهبتين كل عام، ومع مرور الوقت، خفت الكلمات؛ وبدا لنا أحياناً أنّ ضحكاتها تكاد تطفو. ذهبنا لرؤيتها عام 1980. احتفلنا في عيد ميلادها الخامس والعشرين وسط البؤس. كان جمال ابنتنا قد تخثر، كما لو أنَّها سعت إلى دفنه وإخراجه من العالم وإبعاده عن أنظار الرجال. شاركناها بضعة أيام من حياتها، وحضرنا الدروس التي تلقيها على أطفال جياع لكلّ شيء، وساعدناها في المستوصف. كانت فخورة بكلّ ما تفعله.

كانت رزينة. لم تتحدث عن العودة ولا عن الغد، وصارت تتقدّم من الآن فصاعداً، خطوة بخطوة، إلى ما بعد حربها الخاصة؛ وخطوة بخطوة راحت تفتح الطريق أمام الآخرين.

بكينا طويلاً في طائرة العودة. لكنَّ تلك الدموع بدت لنا دموع الفرح.

نظراتنا تتذكر.

بعد عودتنا من الهند، رتبنا للمرة الأخيرة بقايا طفولة ابنتنا؛ بضعة كتب، علبة ألوان مائية، دميتان، قائمة دبّ من المخمل ضامرة. كنَّا نقترب من سن الستين وحان الوقت لتركها تذهب، حان الوقت لئلا نشعر بالخوف عليها - وكان هذا أصعب ما في الأمر. واظبنا على زراعة ورودنا، وتوزّعنا بين حديقة الورد في فييزان ومتجر ليون، وبدأنا نرسم الطريق الذي قادنا إلى هنا، في هذا اليوم الموافق الرابع عشر من يوليو الأخير في هذا القرن.

* * *

اقترح النادل الشاب علينا قدح بورتو آخر، فوافقنا هذا المساء، ونحن نحمرّ خجلاً. وأضاف هذه المرة بضع حبات زيتون وبضع رقائق بطاطا، وهذه الشهوة الأخيرة في حياتنا بدت عيداً. تلاقت أيدينا فوق الطاولة. تبادلنا الابتسام، ولم يكن ثمة أثر للخوف على وجوهنا.

إنّنا مستعدان منذ زمن طويل.

أصبح جسد أحدنا منذ زمن طويل ألماً. تصلّبت أصابعه. وصار ربط شريط حذاء أو عقد ربطة عنق مؤلماً. وصارت عيون

الآخر تستغرق في الاضطراب وتذرف دموعاً مغرقة في القِدَم دون أن نستطيع إيقافها.

بات المشي ينهكنا بسرعة، مع أنَّنا لا نستسلم.

صار الضجيج يسبب لنا صداعاً وبتنا نحتاج أحياناً إلى وقت غير معقول لنستعيد بدقة بعض الذكريات، ولنطابق بين اسم ووجه، ولنستعيد كل تلك الأشياء في حياتنا التي بَنَت سعادة وجودنا معاً.

كان نفاد صبرنا يفوز. ويجعلنا نزقين، وأحياناً مهانين.

ولم تعُد معدتانا تتقبّلان الأطعمة التي نحبها. وصارت حرارة الشاي تحرق فمينا.

تتساقط أسناننا.

وابتساماتنا فقدت بريقها.

تتشنج أيدينا وتصدأ أصابعنا وترتعش شفاهنا. لم تعد بعض الكلمات تفلح في الخروج منها، وهذه الكلمات التي تنقصنا تنذرنا بأن علاقاتنا تضمحل وتُنْهَك، وأنَّ أحدنا يخشى أن يخذل الآخر ذات صباح، ويتركه وحيداً، مع سرطان الوحدة وعار التفسّخ.

* * *

لن نأخذ قدح بورتو ثالث.

تلمع عيوننا الآن، كما في الأزمنة السعيدة. نوقع على ورقة الحساب وينضم ثمن عيبنا المتواضع إلى فاتورة الحجرة التي صمّمنا أن ندفعها الآن.

اعترضت موظفة الاستقبال: لكنكما ستغادران في الغد!

أجبناها: بالتأكيد، لكن في وقت مبكر جداً.

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

رتبنا أمتعتنا في الغرفة ووضبنا حقائبنا. شاهدنا التلفاز قليلاً، حتى حلّ الليل تماماً.

أعلنوا فيه أنَّ 30% فقط من الحواسيب الروسية ستكون جاهزة عام 2000. وأعادوا بثّ صور موكب الجرس الملكي المغربي هذا العام وموسيقى الآلات النفخية لان-بيهوي. وبثوا خبراً عن فوز الدراج جيسيب غيريني في مرحلة الألب-ديز، رغم سقوطه. وتوقعوا طقساً بارداً على أطراف المانش صباح الغد، ودرجة قد تصل إلى تسع عشرة درجة مئوية في فترة ما بعد الظهر. سيكون البحر بارداً.

ثم حلّ الليل. وخرجنا.

* * *

هنالك العديد من الحفلات الراقصة في المدينة، إحداها على السد.

ترسم مصابيحُ ملونة أطواقاً حول حلبة الرقص حيث تتمايل أجساد الفتيات وتتقارب. ليس ثمة متاعب ولا أحزان في الحفلة، وإنما هنالك آمال عريضة فقط.

كانت المرة الوحيدة التي رقصنا فيها هي بمناسبة التحرير. بدا جسدانا كأنَّهما يفرّان منا. راحا يزوبعان ثملين، وينتقلان من ذراع إلى ذراع، وأخذت أفواه تسحق خدودنا وشفاه تتذوق شفاهنا، وضحكات ترنّ في آذاننا، وأيدٍ توقظ ارتعاشات قديمة. وفي غضون ساعة، ساعتين، لم نعُد ننتمي لأنفسنا، وأصبحنا جسداً واحداً من الفرح، بلحمه ودمه. في غضون ساعة، ساعتين، حملت نهاية

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

الحرب لنا نهاية الخوف، والرغبة بالصراخ بالكلمات المنسية، والرغبة بتصديقها.

لكنْ الغفران صعب جداً.

حاذينا حلبة الرقص، لم يعد بوسع جسدينا العجوزين أن يتحرّكا على هذا النحو اليوم؛ وراحت أيدينا الهرمة تتشبث بعضها ببعض خلف أكواخ الشاطئ الملونة ونحن ننزل الدرجات الخشبية المهترئة ذات الارتفاعات الضحلة والخطيرة، التي تقودنا إلى الشاطئ. نخلع أحذيتنا، وعلى الفور تلسعنا برودة الرمال. نرتجف. إنها رعشة طفولية، إعادة اكتشاف. مفاجأة.

أخذنا نبتسم. فنحن في سلام.

نمشي طويلاً لنبلغ البحر؛ إنه بعيد جداً في هذه الساعة. تخدر رطوبة الرمل أقدامنا. وكلّما تباطأت خطواتنا، صارت مؤلمة أكثر. تبتعد أضواء المدينة. وفي الظلام، يصمّ هدير الأمواج الآذان، ويخنق الصرخات، والكلمات الأخيرة والصمت الأخير.

لقد أحببنا بعضنا كل هذه السنوات، بحنان عظيم وعذوبة لم نتخيّل أنفسنا أننا قادران عليها.

نجونا من حزن ابنتنا جين.

غفرنا لأولئك الأطفال الذين لم يولدوا.

حظينا بأصدقاء أوفياء غمرناهم بالدلال، أصدقاء أضحكونا.

وبفضل ورودنا، جعلنا خدود الآلاف من العرائس تتورّد؛ وأتحنا لآلاف آخرين أن يتجرؤوا ويبوحوا بحبهم. الورود الحمراء، **الشغف**؛ الورود الوردية؛ **اللطف، الرغبة بأن تكون محبوباً**؛ الورود الشاحبة، **الحنان**؛ البيضاء، **الحب السري** وأحياناً **الهجر**؛

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

وأخيراً تلك الورود بلون سكري - التي أصبحت مفضلة لدينا في السنوات الأخيرة - **حلاوة الحب**.

اجتزنا سوية نصف قرن طويل جداً.

التقينا في وميض لغم مبهر للبصر مدفون على هذا الشاطئ، وقررنا أن نتلاشى في الظلمة الباردة لهذا الشاطئ ذاته. بعد قليل، سيبدأ حفل الألعاب النارية.

وسيشرب البحر دموعنا.

لا بد أنّ درجة الحرارة لا تتجاوز التسع درجات أو العشر.

حين ولجنا الماء، أمل كلّ واحد منا أن يحصل الأمر سريعاً.

نمشي. سرعان ما بلغ الماء ركبتينا، ثم خصرينا، وعندئذٍ بدأنا نسبح، تتخدّر حركاتنا وتتباطأ بسبب مفاصلنا الصدئة واشتداد البرد. نسبح سباحة بطن خرقاء. تتلامس أصابعنا مع كلّ حركة من الذراعين، فنطمئن على أنّ الآخر لم يزل موجوداً. حين لم تعُد أقدامنا تصل إلى القاع، نكف عن السباحة وننتصب من جديد في الماء. بينما تقوم سيقاننا المنهكة باستدارات صغيرة.

نتبادل القبل وكلمات الشكر على هذه الحياة المديدة، ونشعر عندئذٍ بسعادة غامرة.

ثم يطلب كلّ واحد من الآخر أن يسامحه. ونتبادل السماح.

ترتعش أيدينا الآن، وتصبح متجمدة.

لا تستطيع شفاهنا التلفّظ بأيّ صوت. تتشبّث أيدينا بعضها ببعض. ننتظر، وقد فقدنا القدرة على تبادل الابتسامات.

يشرب البحر دموعنا.

وفجأة، قضي الأمر.

أفلتت يد أحدنا وانقلب رأسه إلى الخلف، وغمر الماء المالح فمه، وأطلق شهقة مفاجئة. ردّ فعل انعكاسي أخير ليُبقي رأسه خارج الماء، لكنَّه سرعان ما يسقط. ما أقسى هذه الحالة بالنسبة إلى الآخر الذي لم يزل حيّاً، لأنَّه لم يغادر أولاً، ولأنّه لن يستطيع إنقاذ الآخر.

تنزلق اليد، ولا تعود الساقان تتحركان. وهناك حيث كان حيّاً منذ لحظة، انفجرت للتو فقاعات الأوكسجين الأخيرة.

خنق الماء البارد الصيحات.

اجتاح الماء البارد الحلق والرئتين وأثقل الجسد وسحبه إلى بطن الماء الأسود.

هذا هو الرابع عشر من يوليو الأخير في هذا القرن.

* * *

عندئذٍ، في هزيم الرعد الشبيه بانفجارات الألغام، راحت تباشير النجوم الحمراء والصفراء للألعاب النارية تمزّق السواد وتنير السماء، وتضيء بلون الذهب والدم وجهي المنهك، بينما قفلتُ عائداً إلى الشاطئ بسباحة مذعورة ومتخبّطة.

* * *

حين وصل الناجي إلى الرمل الرطب، القاسي كالإسمنت، وقبل أن يفقد وعيه من الإنهاك والبرد والخوف والحزن، يلفظ اسم روز (وردة).

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

كزبرة الثعلب

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

إنَّه الليل.

هبت ريح شمالية غربية في الخارج، ورغم اقتراب الصيف، أعرف أنّ هذه الريح تحمل البرد. منزلنا المطلّ على رأس رونوز يرتعش قليلاً؛ اخترناه أنا وزوجتي، لأنَّه لا يوجد صيف بحق هنا. إنَّنا نحذّر فصول الصيف منذ سن الخامسة عشرة، لأنَّها تدفئ الدم. ونفضل هذا البلد خارج الفصل، كما في أغنية كابريل.

مضت عشر سنوات على صيف قبلتنا الفريدة؛ يشبه قوامي قوام أبي في الصور. لدي ضحكته أحياناً. لكنني على النقيض منه هو الذي لم يسعفه الزمن، تعلمتُ أن النعمة لا تدوم إلى الأبد؛ وأنَّ الآلام موجودة دوماً، تلبد في ظلماتنا، في أوقاتنا الحالكة.

بعد مضي أكثر من عام على زراعة نبتة كزبرة الثعلب، رنّ جرس الباب. كان الوقت متأخراً والظلمة صامتة.

ذهبتُ لأفتحه.

فيكتوار.

لم تكن تحمل حقيبة أمتعة، ولا حقيبة يد، ولا ماضٍ. كان أمر

ما قد خدش حجري عينيها الكريمين، وتلاشى بريق الزمردتين وطفقتُ أبكي حين اجتازت عتبة شقتي.

كانت تمسك نبتة آسٍ بيديها.

آس: **أجل، حب مشترك.**

عندئذٍ، احتضنتها بين ذراعي مضطرباً، كمن يستقبل شخصاً تاه ولم يزل يرتعش، ومنذ ذلك اليوم، لم نتحدث البتة عن تلك السنوات.

كانت حاضرة بيننا مثل صداع أرجواني. خيط من الدم لا يمكن اجتيازه.

منذ لحظات ذهبتُ لأغطي ابننا؛ سيبلغ عمّا قريب الثالثة من عمره، لديه عينا أمه الخضراوين وفم أبي، بحسب ما أعرفه عنه. أمي مولهة به؛ ترغب بترك سانغان والاقتراب منّا. اشترَتْ معطفاً مطرياً وأحذية وشبكة لصيد السمك وسلة؛ تراقب أوقات المد والجزر؛ تتخيلنا جميعاً على الشاطئ، وتخمن ضحكاتنا؛ تتدرب على تحضير الفطائر وأقراص الحلويات؛ تتعلم كلمات إقليم البروتان: **ديجمارمات** (أهلاً وسهلاً)، **تروكاري** (شكراً)، **براف يو!** (هذا جميل)؛ فقط الكلمات المهذبة. وحتى ذلك الحين تقضي نهاراتها مع شاعرة الخزف. منذ ثلاث سنوات، تنظمان في الصيف «حدائق الشعر». ليس ثمة جمهور، وأولئك الذين يأتون كما تقول لي، يقرؤون نصوصاً مروعة (نصوصهم) لكنَّ هذا العالم الصغير يشعر بالسعادة وينتظر حالماً حصة من الخلود.

اشتدّت الريح الآن. الهواء مالح. له طعم تلك الدموع التي لم

يَعُد يُذرف منذ صيف أعوامي الخمسة عشر، والتي تغرقني أكثر كل يوم.

أضع قلم الرصاص.

سأذهب للتمدّد من جديد بقربها في سريرنا؛ سأضمها بقوة، لأداري فيها حتى مطلع الفجر، خوفي الشديد من أن تهجرني.

لأداري قلقي.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

قرنفل

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

هذا الصيف لم يغنِ كابريل.

ليس لديه أغنية جديدة على أيَّة حال. في الصيف الماضي، حملت إحدى أسطواناته الشائعة عنوان **ورود وأشواك**. ويلخص هذا العنوان حياتي على أكمل وجه.

خاصة **الأشواك**.

ماتت أمي في الربيع الماضي، في موعد تفتّح الأزهار. لم تستيقظ - هي مَن كانت تكره تحضير الإفطار، فتجنّبت آخر عمل مرهق. حينها أصبحتُ يتيمة حقاً؛ وحتى ابني لم يعُد يخاف عليَّ ولم يعُد يشعر بالبرد لأجلي؛ سافر ليحتفل بعيد ميلاده الثامن عشر في إسبانيا مع أصدقائه، وبعيد ميلاده التاسع عشر هذا الصيف في آسيا مع فتاة؛ وكيتيمة، أصبحتُ وحيدة. وحيدة، «كالنهار/ كالليل/ كالنهار بعد الليل/ كالمطر/ كالرماد/ كالبرد/ كما اللاشيء» مثلما تغني بربارة.

احتفظتُ بشقتنا في شارع باريس؛ رميتُ كلّ ذكرياتنا، ألعاب الشاطئ، وإطارات الصور المصنوعة من الصدف لهيكتور. كأنَّ الشقة أصبحت شاهداً الآن، كأنَّها شاهد على فراغ حياتي.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

ثم بضع وردات، لأنّني صادفت رجلاً منذ عامين.

حدث لقاؤنا أمام كنيسة سانت جان دارك -حين كنتُ أرتاد السوق المغطى في شارع جان مونيه، نهاية صباح صيفي دافئ يعبق برائحة البحر ويضج بأصوات النوارس- التي لا تمتّ للرومانسية بأيّ صلة. كان يخرج من الكنيسة، وسط موكب من الناس المتشحين بالسواد، وباللون البني الغامق. أما النساء، فيرتدين قبعات من القش بسبب الشّمس، بينما الأطفال القلائل يضعون قبعات عليها شعارات لمشروب اليانسون الكحولي. شيء من الدموع، وبعض العناقات الحزينة. تلاقت نظراتنا حين كان يشعل لفافة تبغ. لا أتحدث عن صعقة حب ولا عن همجية، بل عن رغبة وعن تَحَضُّرْ. وبإزاء نظرته وابتسامته وهذا الوضع المحرج، خفق قلبي وأصاب المغص بطني. حين بدأتْ المجموعة تمشي، اندسستُ في الموكب. ابتسمَ الرجل واقترب مني. وكاد أن يلامسني. شممتُ رائحة تبغه البني وقهوته. مشينا صامتين حتى غراند أوتيل، حيث يُقدَّم نبيذ الشرف. تلامست أصابعنا واشتعلت. قدَّمني إلى بضعة أشخاص من عائلته: أصبحتُ فجأة ابنة الخالة مارتين من سان أومير. لكن بلى، يا خالة أندريه، مارتين، أنتِ تعرفينها حق المعرفة، ابنة جاك. والمسكينة أندريه التي يسيل لعابها وترتعش، قطبت حاجبيها وتذكّرت: آه، أجل، جاك، جاك، لكن لا أذكر أن لديه ابنة. وانفجرنا ضاحكين لأول مرة.

بعد ذلك، حين راح الأقرباء يتذكّرون حياة الميت ويبرهنون عليها بالصور (حبه لكلاب الصيد، شغفه بأفلام المغامرات الأميركية)، هربنا لنلتقي في غرفة تبديل الملابس في الفندق، حيث سادت شهواتنا البرية التي لا يمكن كبحها. كان ذلك قويّاً وجميلاً

ووقحاً. انصهارياً. وآمنتُ بشيء ما. اللقاء. هو احتمال.

لكنَّ التهديد لم يكن بعيداً البتة.

بين أنفاسنا التي تتخامد، قال لي إنَّه يحبني. ويريد رؤيتي ثانية. سألني عن اسمي، وأراد أن يعرف إن كنتُ أحب الموسيقى الكلاسيكية والفطائر والنبيذ. وأفلام جود أباتوا. وصدّقته. أقسم لك يا سيد روز، أنَّني في تلك اللحظة، وأنا ممدّدة على البلاط البارد، اعتقدتُ أنَّ هذا مناسب. وأنَّه الرجل المناسب. والنهار المناسب. وأنَّها انطلاقة ممكنة قد تفضي إلى قصة حبي. تهاتفنا. والتقينا بعد بضعة أيام في شقته المستأجرة في هارديلو. شعرنا بالجوع ذاته واللهفة ذاتها. والحماسة ذاتها. عدتُ من جديد إلى سن الخامسة عشرة، ما في القلب على طرف اللسان، والقلب موهوب.

التهديد.

بعد ذلك في دخان لفائف التبغ: كلماته. كأنَّها نصال سكاكين تنغرس في اللحم. كان متزوجاً. لكنَّ هذا لن يستمر. طلب مني أنْ أنتظره. وعدَ وتوسّل. لكن الأوان فات. إذاً لم يعد هنالك ما أنتظره من الحب يا سيد روز. وعادت **الأشواك**. صارت بشرتي مؤلمة من جديد، منتفخة من العيوب، منذورة للتعب. وكما تعرفون، حزني بسبب الرجال لا عزاء له. إنَّني عصية على الشفاء. ولم أعرض نفسي بعد ذلك على جائع أبداً. لم أعُد أخرج في الليل أبداً، ولم أعد أتوه في الظلمات، في أنفاس الكذب الدافئة. أغلقتُ جسدي، وخيطتُ فرجي وأقفلتُ قلبي. وبقيتُ حيّة.

لم يحالفني الحظ قط مع الرجال.

* * *

هذا الصباح، يهدّد المطر بالانهمار على توكيه. فوق السدّ يحتج الأطفال، والأمهات أعددن المعاطف المطرية والأحذية. الشاطئ خالٍ ومكفهر.

هذا الصباح مثله مثل صباحات يوليو منذ عشر سنوات؛ جئتُ لأرى السيد روز. مثله مثل صباحات يوليو منذ عشر سنوات، جلبتُ له قرنفلة -قرنفلةُ هذا اليوم تميل إلى اللون الأرجواني- هذا الصباح، أقرأ له بضع صفحات من قصص **صبيانيات** لفاليري لاربو(*)، قصص روز وروسشين وجوليا وجوستين - هؤلاء الفتيات اللاتي كنّا مثلهنَّ يوماً، حالمات وعاشقات، واللواتي شوّههن النمو غالباً.

هذا الصباح، اقتربت امرأة منّا. يرافقها رجل وسيم هندي. سألتني بصوت فائق العذوبة إنْ كنتُ أعرف هذا **السيد روز**. ابتسمتُ لها. أجبتها أجل. لا. في الحقيقة، أنا. لكن. عندئذٍ، جَلَسَتْ بجانبي، وروت لي قصة بيير وروز.

حين انتهت، حين جفّت دموعنا، أدركتُ أن هنالك حبّاً أعظم منّا. أكبر منّي.

وأنَّ الحظ حالفني لأنَّني جزء منه.

(*) فاليري لاربو: كاتب وشاعر وروماني فرنسي ولد في 29 أغسطس 1881 ومات في فبراير 1957.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

زنبق

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

يُعلن اليوم أنَّ درجة الحرارة هي تسعون درجة فهرنهايت (ثلاثون درجة مئوية).

منذ عشر سنوات، لم تكن درجة الحرارة تتجاوز العشرين درجة في توكيه، وكان البحر بارداً. ويُحكى أنَّ رجلاً أراد أن يغرقَ فيه مساءَ حفلةٍ راقصة.

لم نعُد قط إلى توكيه.

تركنا بقايا امرأة تدعى مونيك ورجل يدعى ريتشارد.

تركناهم يجنحون، يتحطمون على الصخور، ويختفون.

وعلى الرمال الدافئة، أصبحنا لويز وروبير. وفي نداوة أغطية الفندق - الذي نسينا اسمه والذي كان يطل على مشهد رائع، وفي برودة حانة الفن الزخرفي الرديئة، وفي حروق جسدينا الحديثي الولادة، وفي الماء الدافئ للمغطس، في عيوننا، وفي شهواتنا الجامحة، أصبحنا لويز وروبير.

كان ذلك منذ عشر سنوات خلت.

* * *

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

أقمنا هنا منذ ما يقارب العشر سنوات.

بنينا منزلاً خشبياً في مونتان بروك، في شمال شرق أميركا، قرب بوفينا، على بعد مئة وخمسين ميلاً شمال مدينة نيويورك. كان يطلّ على نهر ليتل دولاوا، وكل صباح، حين نفتح النوافذ، ثمة لوحة جديدة رائعة. المنزل فسيح وودي. يأتي أبناؤنا الثلاثة كل صيف وكل شتاء. في البداية مع خطيباتهم، وبعد ذلك، مع زوجاتهم، والآن مع أبنائهم.

الشتاء بارد جداً هنا؛ الثلج يقطع الطرقات لمدة أسبوع كامل أحياناً، وحين لا نتزلج، نقضي ساعات قرب مدفأة كبيرة، تاركين النار تحرق بشرتنا وتلهبنا.

سيكون أبناؤنا هنا في غضون أسبوعين، في مطلع شهر أغسطس. سنقيم عندئذٍ حفلات شواء لا نهاية لها. سيذهب الصِّبْيَة للتنزه بالقارب؛ سيحسبون أنفسهم عندئذٍ الأخوة ماكلين في فيلم **نهر يجري خلاله**(*)، لكنَّهم لم يفلحوا حتى اليوم في اصطياد سمكة سلمون واحدة كبيرة كتلك التي يتباهى جارنا المحبوب غارنيت لي بأنَّه اصطادها يوماً - وكان طولها يقارب المتر وتزن أكثر من سبعة كيلوغرامات.

في غضون أسبوعين سننعم لمدة شهر بأحد فصول الصيف الغابرة، قبل أن تنبت الأجنحة على ظهور أبنائنا؛ بأحد فصول الصيف كنَّا نقضيها في الجنوب، في القرى الفرنسية.

(*) فيلم لروبرت ريدفورد، وهو ممثل ومخرج أميركي ولد في 18 أغسطس 1936.

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

كان ذلك قبل البرد. قبل جليد رحيلهم.
قبل أن أصبح لويز، لئلا أموت.

* * *

قبل عشر سنوات من الآن، وفَّينا بكلّ وعودنا في توكيه.
صنعنا الفراغ، وألقينا بالأشياء غير اللازمة. الذكريات المزدحمة. والأكاذيب الضرورية.
بنينا هذا المنزل اللطيف الذي لم يأوِ أحداً قبلنا. لدينا سرير واسع وحوض استحمام كبير. تبادلنا على الدوام الزنابق الحمراء. واحمرّينا خجلاً أيضاً. مارسنا الحب أغلب الأحيان، على السرير الواسع وفي حوض الاستحمام، وخارجاً في النهر، وعلى الدوام بنهم هائل ووقاحة فاحشة.
ابتعدت التهديدات، حتى تلاشت.
إنَّنا عاشقان على نحوٍ لا يصدّق - منذ خمسة وثلاثين عاماً. مرتبطان على نحو وثيق، وهذا اليقين يريحنا في العمق، ويمنحنا السعادة والحرية. كلّ واحد منَّا يرى الآخر جميلاً من الآن فصاعداً، وإلى الأبد. إنَّنا حكاية لم تُروَ. حبٌّ عظيم لا يستحق كتاباً؛ لأنَّ أحداً لن يفلح في تأليف كتاب يبدأ بـ«عاشا سعيدين».
وفي الحقيقة، نحن زوجان بلا فائدة.

* * *

يعلن اليوم أنَّ درجة الحرارة هي تسعون درجة فهرنهايت (ثلاثون درجة مئوية).

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

وردة

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

وصل المغلف من جاغدالبور، في شاتيسغارف - وهي دولة ولدت مع مطلع القرن ولم أمكث فيها سوى أربعة أسابيع.

مرَّ قبل ذلك بمدينة سري غانغاناغار على الحدود الباكستانية، ثم بمدينة بانسفارا الملقّبة بمدينة الألف جزيرة. وحمل المغلف أيضاً أسماء أخرى، وحروفاً أخرى؛ إنَّها حبات سبحة في رحلتي السياحية الهندية الطويلة، رحلة تحوّلي البطيء والمؤلم. ومع كلّ انتقال، كنتُ أتخلّى عن شيء من حزني لفقدان زوجي بُعَيْدَ زواجنا بقليل. لكنَّ دموعي ظلت عصيَّة على الجفاف.

ثم مرَّ بمدينتي بومباي وناجبور في ولاية ماهاراشترا. ومدينة هانباد في ولاية جهارخاند، المدينة المظلمة ذات المئة واثني عشر منجم فحم، وبكلماتٍ ساخرة، **مدرسة المناجم الهندية** الشهيرة.

ثم تيروكالو كاندرام، في ولاية نادو.

ثم أورفيل الطوباوية التي التقيت فيها عدي شارما، الرجل الذي أحبّه ويحبني؛ عدي الذي يعني اسمه الأول **الأكثر أهمية**، وتعني كنيته **الفرح والمأوى**.

وإلى باغدوبا، على خليج البنغال وصلتني هذه الرسالة أخيراً. بعد تسع سنوات من السفر. الخط خط أمي.

وما أدهشني على نحو خاص أنَّه منذ عشر سنوات لم أتلقَّ خبراً عن والديَّ، فاتصلتُ بجارتنا بعد بضعة أشهر، وأخبرتني باختفائهما وهي تبكي. لقد غادرا في سيارة ولم يصلا إلى أيّ مكان. افترضوا أنهما تعرضا لحادث سيارة، لكنَّ الشرطة مشطتْ طرق المحافظة عدة مرات ولم تعثر على شيء. ولم يعد أمامنا إلّا أن ننتظر أن يكتشف صياد أو متنزه ذات يوم هيكل السيارة في أحد الوديان، أو يعثر عليها صياد أسماك في قاع نهر.

كانت الرسالة مؤرخة في 14 يوليو 1999. وكنّا في 15 نوفمبر عام 2008.

* * *

عزيزتي، عدتُ أنا ووالدك إلى توكيه؛ إلى المكان عينه الذي التقينا فيه، يوم القصف؛ إلى المكان الذي ترعرعتِ فيه، ومشيت خطواتك الأولى فيه، إلى المكان الذي صدحتْ فيه ضحكتك المجنونة الأولى كفتاة صغيرة. وقد غمرتك الدهشة آنذاك، لأنَّه ويا للمفارقة جعلت هذه الضحكة الدموع تنهمر من عينيك، وسرعان ما أدركتِ أنَّ الدموع ليست كلّها أحزان بالضرورة.

أنهينا طريقنا أنا وأبوكِ. تبادلنا الحب كل يوم وكل ليلة لمدة تزيد عن النصف قرن. وكانت الصباحات التي استيقظنا فيها سويّة ونحن حيانِ، كانت سعادة لانهائية.

الحب هو أنْ يمتلك المرء شيئاً جديداً أمامه، صباحٌ جديد،

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

ثم صباح آخر أيضاً. نحن لم يعُد لدينا ما ينتظرنا، أو صار القليل جداً ينتظرنا. التهديد في الداخل من الآن فصاعداً.

لقد هرمنا. أصبح جسدانا متعبين الآن. والألم يطلّ برأسه القبيح. أصابعنا تتخدّر وتتقصف. إنَّنا مشبعان بالذكريات. وأجملها ذكراكِ. لا نريد أن نفسد نعمة الحب ولا أن نستسلم لحزن الأشياء القبيحة. لم نزل جميلين، وقد قالت لنا امرأة ذلك أيضاً، يوم أمس في الفندق، لا سيما هو؛ لم أخبره بذلك بعد، لأنَّه يعاملني ككاذبة، أو كفاتنة. لم يزل يضحك كما تعرفين.

رحيلنا معاً نعيم. إذ لا حزن ممكناً بعدهُ.

في هذه الليلة، على الشاطئ، ونحن نسير نحو الماء، نحو نجومنا، سنفكر فيكِ، أنتِ مَن كنتِ فرح حياتنا العظيم.

* * *

يا إلهي كم بكيت حبهما العظيم.

قرانهما الأخير.

فيما بعد، هرعت مع عدي إلى القنصليات الفرنسية للحصول على أخبار أهلي، وأمضينا أوقاتاً عصيبة على الإنترنت، واتصلنا بفرنسا لساعات وساعات. اتصلنا بالبلديات والصحف المحلية والدرك. انتظرونا قروناً. وفي أحد الأيام، اتصلتْ بنا سيدة من مبنى بلدية توكيه (ليباركها الله). تذكّرتْ رجلاً عجوزاً اكتشفته امرأة شابة على الشاطئ منذ عشر سنوات، عشية حفلة راقصة. لم يعرف أحد هويته البتة. وانتهى الأمر إلى إطلاق اسم السيد روز عليه لأنه قبل

موته في معهد كالو-هيليو في بيرك-سير-مير لم يتلفّظ إلّا بكلمة واحدة، هي دائماً ذاتها. روز. كلازمة حب.

بكيتُ لزمن طويل. بكيتُ أزهار والديّ، بكيت الورود الدمشقية، وورود أنفان أورليان وأزهار الماريشال داموس في طفولتي. بكيتُ اسم أمي الجميل. وبعد ذلك، عدي ملجئي، عدي فرحي، ضمّني بين ذراعيه القويتين وهمس: هيّا.

* * *

وصلنا إلى فرنسا بداية يونيو. عثرنا عل أثر لأمي في معهد الطب الشرعي بمدينة لينس، هناك اكتشف صبيَّان على شاطئ ويسان جسداً قبل عشر سنوات، وقد شرحوه. سبب الوفاة هو الغرق. عرضوا عليَّ الصورة مدهشة لوجهها، إذ أعادوا تشكيله على الحاسوب. كانت هي.

دفنوها في حفرة عامة من مقبرة إيست، في سالومين. وهناك، عند قبر بلا اسم، وَعَدْتُ أن أعيدها إلى توكيه، أن أعيدها إلى جانبه؛ وبما أنَّه «(...) لم يُصْنَع قط/ نعشٌ لاثنين»[1] فإنَّه يمكننا أن ننقش اسميهما معاً، بحيث يشكلان واحداً.

بعد لينس، نصل إلى توكيه.

هذا الصباح، المطر يهدد. يحتج الأطفال على السد، فالأمهات أخذنَ الحيطة بالسترات المطرية. الشاطئ مشتت ومكفهر.

في شارع كانش، يدلّنا الحارس على مكان قبر السيد روز.

---

(1) كي لا تعيش وحيداً، غناء داليدا وكلمات بالاسكو/ فور.

حين وصلنا إليه وجدنا امرأة تجلس عند الشاهدة، وفوقها وردة قرنفل - تميل إلى اللون الأرجواني.

تمسكُ المرأة كتاباً وتقرأ بهدوء وصوت خفيض، كأنها تلقي الكلمات إلى شخص في غيبوبة في المشفى، وهو في حالة لا تزال تسمح له بالسماع والإصغاء.

تلعثمتُ وأنا أسألها إن كانت تعرف هذا... السيد روز. ابتسمتْ وأجابتني أن نعم. أن لا. في الحقيقة.

عندئذٍ، جلستُ بجانب تلك المرأة، وبعد أن رويتُ لها قصة بيير وروز، روت لي بدورها، حكاية نادرة وثمينة عن الأيام الأخيرة لأبي. *مكتبة الرمحي أحمد*

tele @ktabpdf مكتبة الرمحي أحمد

كلمة المؤلف

كلود وأوديت ف. كانا معمِّرين في الرابعة والثمانين والواحد والثمانين من العمر. وجدتهما مدبِّرة منزلهما في شقة فاخرة من الطابق الرابع في الدائرة السابعة بباريس. كانا ميتين معاً.

أعلن مصفف شعر أوديت فيما بعد: «حين يرى المرء أحدهما، فإنّه يرى الآخر».

كان برنارد وجورجيت.س في سن السادسة والثمانين حين وُجدا ميتين في غرفة في لوتوسيا بباريس. بعد أن أمضيا ليلة أخيرة سويّة.

فيلمون وبوسي (منذ زمن طويل) أعربا للآلهة التي تريد مكافأتهما على لطفهما أنَّهما يرغبان بالموت معاً. حين بلغا نهاية حياتهما، لاحظ كلّ واحد منهما أن الآخر يكتسي بالأوراق. ثم بدأ يحاط باللحاء. ثم تحولا أحدهما إلى شجرة سنديان والآخر شجرة زيزفون. لكن لم يكن للشجرة إلا جذع واحد. هكذا ارتبطا ببعضهما إلى الأبد.

أخيراً، وأقدم من ذلك أيضاً، عام 3800 قبل الميلاد على

مكتبة الرمحي أحمد tele @ktabpdf

الأرجح (بحسب التحليل الشعاعي للكربون 14)، عثروا في مغارة ديروس -في بيلوبونيز- على امرأة شابة ورجل شاب متحاضنين بحنان، بعد خمسة آلاف وثمانمئة وثلاثة عشر عاماً، في يوليو عام 2013.

فصول الصيف الأربعة

فصول الصيف الأربعة... أو فصول الحب الأربعة.

أربعة أشخاص وأربعة أجيال وأربع قصص حبّ تتلاقى وتتصادف وتتأثّر بعضها ببعض من حيث لا تدري. أعمارهم متفاوتة: خمسة عشرة، وخمسة وثلاثون، وخمسة وخمسون، وخمسة وسبعون عاماً. ولكلٍّ عاشق قصّة حب، لأنَّه ليس للحب عمر، كما هو معروف.

هذه القصص تمثّل قصص حبنا المختلفة: حبنا الأول، حبنا الرومانسي، حبنا المؤسف، حبنا العابث، حبنا الأبدي...

«إنَّها دوماً الحكاية ذاتها، في زمن الحرب كما في زمن السلم، في الصيف كما في الشتاء، حاجة المرء هذه لئلا يكون وحيداً. هذه الشهية لأنْ يكون محبوباً».

يلج غريغوار دولاكور بمنتهى الإحساس أعماق الشخصيات، يصغي برقّة إلى مشاعرهم ويصفُ ببراعة علاقة الرجل بالمرأة.

تتابع هذه الرواية المؤثّرة والساطعة مسار جراحنا واندفاعاتنا الأشد هيجاناً، وتتناول بإبداع ذاك المسعى الأبدي الذي نسميه الحب.

❖ ❖ ❖

«يعرف غريغوار دولاكور كيف يندسُّ في مكنونات شخصيّاته ويحرّكها بمهارة وشغف».

مجلة لوبس الفرنسية

ISBN 978-9953-68-860-2
9 789953 688602

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com